

الباب الثاني

هيأتى كطالب سويسى

قال لى مدير بيت الطلبة بنبرة حادة :

« لو وجدت عملا فى ظرف خمسة أيام ، أو قبلت فى أى مدرسة تدبر لك مأوى ، فلن يكون هناك اعتراض على تركك بيت الطلبة « مبارتاك » - والا فستظل هنا ، ويجب أن تلتزم - مثلك فى هذا مثل الآخرين كلهم - باتباع جميع لوائحنا » .

وكان قرارى بينى وبين نفسى :

لن أمكث فى « مبارتاك » مهما كانت الظروف ، فهو بيت تخيم عليه الكتابة ، ولا بد أن أخرج منه . لأنى أشعر فيه وكأنى أرتدى رداء يكتم أنفاسى .

وهكذا بدأت البحث عن مدرسة ، تقبل من أتم دراسة الفصل التاسع (الاعدادية) ، ويمكن أن تعطينى منحة دراسة ، وتهىء لى مكانا للإقامة .

الدروس التجهيزية المنقذة

اتجهت الى مدرسة للمعلمين فى موسكو ، تتخذ لها مبنى قديما قريبا محطة مترو الأتفاق « كيروفسكايا » ، ملتصبا لقبولى فيها ، فكان ردهم على : « لا نستطيع قبول أحد اليوم ، لأن العدد كاملا فى هذه الدورة ، ولكن لدينا قائمة انتظار نان يلتحقون فى شهر أغسطس ، يمكنك أن تسجل اسمك فيها » .

وحين قدمت لهم شهادتى التى توضح بانى طالب ممتاز قالوا لى : « ربما نستطيع أن نستثنيك ، مر علينا بعد غد » . بعد غد ! كان هذا آخر يوم يحدده ناظر المدرسة . خرجت فى طريق عودتى من المدرسة على المسكن الجميل الذى

كنت أسكن فيه في « كلاثنى » ، وكان قد تحول آنذاك الى مأوى لأطفال
سوفييت ، الا حجرتين تركوهما لسكنى بعض الشباب النمساويين
والألمانيين الذين لم يستطيعوا تدبير مأوى آخر لهم ، وقد قيل لى
بوما أننى أستطيع الإقامة معهم مؤقتا ، اذا لم أحصل فى المدرسة التى
قبلت فيها على مكان للنوم •

طلع نهار اليوم الخامس ، الذى سوف يتقرر فيه مصيرى ••
دخلت مبنى مدرسة المعلمين متوتر الأعصاب ، فقال لى الموظف :

« بناء على بحث مسألتك ، قررنا قبولك » •

أردت شكره ، والشعور بالسرور يملأ جوانحى ، وكيف لا ، فقد
أحسست بأنى أصبحت فعلا طالبا فى المدرسة ، وتخلصت من « سبارتاك » ،
ولكن هذا الاحساس كان سابقا لأوانه ، اذ سمعت كلمات تدق فى أذنى :
« انتظر أسبوعا على الأقل ، حتى تنتهى الاجراءات ، وبعدها
يمكن أن تأخذ تصديقا من المدرسة بأنك قبلت للدراسة فيها » •

« أسبوع آخر ! لا أستطيع أن أنتظر هذا الوقت الطويل ،
ألا يمكن أن يوافق المدير اليوم على قبولى ؟ فأنا مضطر أن آخذ شيئا
فى يدي ! ورقة رسمية تثبت قبولى ! لأن فى هذه الورقة انقضى » •
« هل تريد أن تلتحق بدورة دراسية تجهيزية ؟ اذا وافقت فيمكن
قبولك فى هذه اللحظة ، ولكن سوف تضيق عليك سنة » •

بدت لى الأمور فى هذه اللحظة متساوية ، لم أهتم بشئ سوى
الابتعاد عن بيت الطلبة الروس • لم أعرف بالضبط فائدة هذه الدورة
التجهيزية ، وكان عندما سمعت أنه يمكن قبولى فى هذه اللحظة ، لم
أتردد فى الموافقة . لأن كل شئ يهون فى سبيل خروجى من بيت الطلبة •
ولم تمضى بضعة دقائق حتى كنت أمسك فى يدي تصديقا فيه أن
انضميل « هوفل جاتج إيهونهارد » تلميذ فى الدورة الدراسية التجهيزية
فى مدرسة المعلمين للغات الأجنبية فى موسكو •

غادرت المدرسة وأنا أظير فرحا • وبعد نصف ساعة كنت فى بيت
الطلبة « سبارتاك » ، وبعد وجولتي ببرهة قصيرة كنت أقف أمام
المدير ، حاول أن يكون لطيفا معى ، لدرجة أنه هنأنى على قبولى بمدرسة
المعلمين •

ثم ودعنى أصدقائى ، من الألمانين والنموسيين ، أصدقاء بيت
الطلبة السابق رقم ٦ ، الذين قضيت معهم أعواما طويلة ، وكانوا قد
حولوا معى أيضا الى بيت الطلبة الروسى « سبارتاك » • تمنوا لى
الخير كما فعل المدير ، ولكن كان فى كلماتهم حرارة ووضوح على عكس
ما كان فى كلمات المدير من برود وتكلف •

وهكذا بدأت حياتى فى صيف عام ١٩٣٩م طالبا فى القسم التجهيزى
فى معهد المعنمين للغات الأجنبية فى موسكو •

كانت الدورات التجهيزية — التى تستغرق عاما — بالنسبة
للمعاهد العليا آنذاك منتشرة فى الاتحاد السوفييتى ، وكان الغرض
منها تجهيز الشباب لمعهد عال معين ، وتمكين الطلبة الراغبين فى
الالتحاق بتلك المعاهد من الإلمام بالعلوم التى يريدون التخصص فيها ،
ويؤدى الطالب امتحانا فى آخر العام يكون بمثابة امتحان قبول فى
المعهد الذى يرغب الالتحاق به • وبناء على قبولى بهذه الدورة ، فقد
كنت متأكدا أننى بعد سنة — أى فى صيف عام ١٩٤٠م — سوف ألتحق
بمعهد المعلمين للغات الأجنبية الذى يسمى « موليا » •

لم تكن الدروس صباحية فى مبنى المعهد ، بل بعد الظهر —
وفى المساء — فى حجرات احدى المدارس فى وسط موسكو • وعلى
الرغم من أننا كنا — تقريبا — طلبة ، الا أن الدراسة فى هذه الدورة
التجهيزية كانت تشبه الى حد بعيد الدراسة المدرسية • فالبرنامج
الدراسى يسير بالضبط كما فى المدرسة ، حصص مقررة كما فى
المدارس ، أعمال فى الفصل ، حل تمارين ، وواجب منزلى — وكان
يرصد لنا درجات على هذه الأعمال • وأثقل كاهلنا بالاختبارات الكثيرة ،
كما هى العادة فى كل المدارس السوفييتية • كان أكثر من نصف الوقت
الدراسى مخصصا للغة الانجليزية ، وكنا ندرس بجانبها مواد فرعية
مثل : اللغة الروسية ، والأدب الروسى ، والتاريخ • وكنت مسرورا بهذا
المنهج ، لأننى تحررت من دراسة الرياضة والطبيعة والكيمياء ، فقد
أعطانى هذا فرصة للتركيز على المواد الأدبية التى أهتم بها •

يتقدم المرء فى الدورة التجهيزية بأسلوب درسى منظم وشامل ،
الا أنه بطيء جدا ، فهى الثلاثية أو الإربعة شهور الأولى من السنة
تتركز الدراسة كلية على الصوتيات ، لأنهم يهتمون بالنطق اهتماما

كبيراً • كتبت كل قواعد الاملاء بالطريقة الصوتية العالية ، فكرسنا وقتاً طويلاً لنطق العلامات الصوتية ، وكان يجب علينا أن نتمرّن أمام المرآة لنتبين بالضبط مواقع اللسان وحركات الفك عند النطق • ولم نبدأ في لغة الكتابة الانجليزية بألفها وبائها الا في بداية النصف الثاني من العام •

ربما تبدو هذه الطريقة التعليمية مملة للمفكر في أوروبا الغربية ، ولكن لها محاسن ، ذلك أن الدارس عندما يبدأ قراءة النص الانجليزي يكون لديه قدرة على اتباع القواعد الصحيحة — عموماً — في نطق اللغة ومما لا شك فيه أن هذا هو الطريق الوحيد لتعليم اللغات الأجنبية في بلد نادراً ما يسمع فيه المرء اذاعة انجليزية ، أو يرى فيه أغلاماً أمريكية أو انجليزية ، وما يوجد من الكتب الأمريكية أو الانجليزية فقليل ، ومن الأمور التي ينبغي ألا تخفى على القارئ أن المواطن الروسي أو المقيم اقامة دائمة مثلى ليس لديه اطلاقاً امكانية التحدث مع زائرين أمريكيين أو انجليز ، ولهذا كانت طريقة تعليم اللغة الانجليزية التي شرحتها آنفاً هي التي تتناسب مع الحياة السوفييتية •

اهتمت كثيراً بدراسة مادة اتاريخ — وفضلتها على المواد الأخرى — التي تعبرت في كثير من أبحاثها ، ومنهجها ، بعد عقد معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا ، فقبل عام واحد كان انتصار « ألكسندر نيوسكس » على جمعية المحاربين الألمان في معركة « بحيرة بايوس » في أبريل سنة ١٢٤٢م حديث فخر واعتزاز ، وحدث هام في التاريخ الروسي ، أما الآن — بعد توقيع المعاهدة مع ألمانيا — فلا تذكر هذه المعركة الا في جملة أو جملتين ، وقفز الى مكان الصدارة في دراسة التاريخ القاء الضوء على المغزى التاريخي لسياسة بطرس الأكبر الخارجية ، فقد انتج سياسة مساندة قيام الدولة البروسية في عام ١٧٠١م ، وبهذه المساندة وضع الحجر الأساسى للتعاون بين ألمانيا البروسية وروسيا ، ذلك التعاون الذى يعود اليوم الى الظهور مرة أخرى ... ثم يلي هذا التحليل الوصف المعهود للمعنى التاريخى للمعاهدة بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا •

كذلك لم يكن التفسير بعد المعاهدة خافياً في المجالات الأخرى ، ففى مكتبة الأدب الأجنبى ، والمختصات الدورية الاجنبية ، اخذت

انجرائد والمجلات التي يصدرها الهاربون من الحكم النازي وحلت محلها الصحف النازية • ورفع من المكتبة روايات كتبها لاجئون سياسيون لتصوير طغيان النازية • ولم يعد المرء يسمع كلمة « الفاشية » في الاتحاد السوفييتي اطلاقا ، وكأن لم تكن — ولم توجد من قبل — فاشية على الاطلاق •

تغيرت السياسة الداخلية أيضا تغييرا مفاجئا ، فغيرت مسارها — بزواوية حادة — بعد عقد المعاهدة ، ففي مساء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩م رفعت من دور العرض كل الأفلام السوفييتية التي تعارض الفاشية مثل فيلم « بروفييسور مملوك » و « أسرة أوبنهايم » وهو عن قصة كتبها « ليون فيوشت فاجنر » • كذلك رفع في نفس المساء كل المسرحيات التي تضمنت اتجاهها مضادا للفاشية ، مثل مسرحية : « بحارة من جتارو » على الرغم من أن أحداثها تدور حول ثورة البحارة في عام ١٩١٨م وكانت ضد الحكم الملكي في النمسا والمجر ، الا أن الرقابة على المسرح احتاطت أكثر مما يجب ، فمنعتها خوفا من أن يغفل المشاهد تاريخ أحداثها •

عندما بدأ الهجوم الهتلري على بولندا في الحرب العالمية الثانية — وكان ذلك في أول سبتمبر ١٩٣٩م — انطلقت الدعاية السوفييتية معبرة عن الرأي الرسمي للحكومة تحلل وجهة نظرها في هذه الحرب :

تدور المسألة حول حرب امبريالية من كلا الجانبين ، وقد نجح الاتحاد السوفييتي أن يقف على الحياد في هذه الحرب ، طبقا لسياسته الخارجية التي تتسم بالعبقرية وبعد النظر •

ثم انتشرت بعد أيام قليلة أول حكاية هزلية ، في اطار الدعاية السوفييتية :

— هل سمعت عن نهضتنا الجديدة في انتاج الطائرات ؟

— لا ! كيف ؟

— سقط أمس متحطما فوق أوروبا الغربية اثنتا عشر طائرة انجليزية ، وثمانى طائرات ألمانية •

— ولكن ، ما علاقة هذا بانتاجنا في الطائرات ؟

— هذا واضح جدا ، فسقوط هذا العدد عندهم ، معناه ارتفاع

في عددهم عندنا •

ربما هناك رسالة لهم يجب ان يقرأها ريشيفسكي ايضا

وبعد ما اتهارت بولندا كلها تقريبا أمام جيوش هتلر ، أعلنت وسائل الدعاية عن دخول قوات سوفيتية أرض بولندا • ثم عقدت في نفس اليوم اجتماعات جماهيرية في كل مكان — وبالطبع في معهدنا أيضا — شرحت فيها الاجراءات التي اتخذتها الحكومة السوفيتية لحماية حياة وممتلكات اخواتنا في الدم ، شعوب غرب أوكرانيا ، والأجزاء الغربية من روسيا البيضاء • كان هذا هو السبب الذي أعلنه المتحدث الرسمي لدخول قوات سوفييتية أرض بولندا ، ونسوا أن الاتحاد السوفيتي أعلن قبل بضعة أسابيع — بل أكد ذلك تأكيدا — أنه سيحمي بولندا من أى هجوم يفكر فيه هتلر ، وسيدافع عنها •

أوشكت القوات الألمانية على اتمام غزو بولندا في ٢٨ سبتمبر يوم أن أعلن أنه بالإضافة الى معاهدة عدم الاعتداء التي عقدت مع ألمانيا ، فقد تم الآن عقد معاهدة صداقة ، بعد ما اتفق على الحدود الجديدة في المنطقة التي كانت تسمى قبل ذلك بولندا • ظلت سياسة الحزب الرسمية — حتى بعد عقد معاهدة الصداقة — تدور حول تفسيرها السابق ، وهو أن المسألة تتعلق بحرب ابريالية من كلا الجانبين •

لقد علمتنا التجارب منذ أمد ضويل ، ودربتنا الأحداث على أن نمنع النظر فيما يقال ، ونفكر تفكيرا دقيقا في كل اشارة — مهما كانت صغيرة — تظهر في الجرائد ، أو تذاع في وسائل الاعلام المسموعة ، ولهذا لم يكن في الامكان أن يغيب عنا أن تقارير وزارة الدفاع الألمانية تكون دائما في المقدمة ، سواء في الاذاعة أم في الصحافة ، أما بيانات انجلترا وفرنسا عن سير المارك فتأتى في المرتبة الثانية • كذلك كانت المساحات التي تشغلها خطب « هتلر » في جريدة « برافدا » أكثر من المساحات التي تحظى بها الحقرات المنشورة من خطب « تشرشل » • وبهذا لم يكن من الصعب علينا أن نتبين انحياز الدعاية الرسمية لهتلر وأن ميولها تميل الى جانبه أكثر مما هي الى جانب القوى الغربية •

في الكسوف

غرس أسلوب السياسة الخارجية في نفسى الشك في بعض الظواهر في الاتحاد السوفيتي ، ولكن لم يهز بعد موقفى كلية من

تأعماق ، ولهذا لم أتردد في أن أحاول في هذه الفترة الالتحاق « بالكممول » (منظمة الشباب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي) • اقد تمنيت مخلصا أن أكون عضوا في هذه المنظمة (أى أن أكون كمموليا) ، لأنى قرأت كثيرا عن أعضائها ، وعن أعمالهم البطولية في الثورة ، وفي الحرب الأهلية ، واطلعت على ما قاموا به من جهد خارق في الخطة الخمسية الأولى • ومن الأعمال التى أثرت في نفسى أكثر من غيرها كتاب « نيكولاي أوستروفسكى » وهو بعنوان « كيف اخشوشن الصلب » وهى قصة الشباب السوفييتي في المنظمة ، أثرت على كثير منهم ، كانوا يقرأونها كلما اعتراهم شك ، فتخلق فيهم الثقة بالنفس ، وتبعث فيهم قوة جديدة ، وتبث فيهم طاقة وحيوية •

كان « الكمول » آنذاك يستعد للاحتفال بمرور ٢١ عاما على انشائه ، ففي يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩١٨م أعلن في أول مؤتمر روسى عام لشباب العمال والفلاحين ارتباطه الكلى بالحزب الشيوعي ، وأطلق عليه منذ ذلك الوقت « منظمة الشباب الشيوعي في روسيا » • ثم عرف بالاسم المختصر « كمول » •

تعتبر سنوات الحرب الأهلية فترة شاعت فيها قصص البطولات التى قام بها أعضاء المنظمة ، وهى في الوقت نفسه فترة النمو الهائل في عدد الأعضاء ، اذ ارتفع من ٢٢٠٠٠٠ عند تكوينها في نوفمبر سنة ١٩١٨م الى ٤٠٠٠٠٠ عضو في بداية عام ١٩٢٠م • لم تكن « كمول » آنذاك مؤسسة سياسية توجهها قيادات عليا في الحزب ، بل كانت اتحادا ثوريا للشباب يموج بتيارات معارضة متعددة الاتجاهات داخل تنظيماته فقد قام في عامى ٢٠/١٩٢١م في « كمول » أوكرانيا جبهة معارضة دغت الى تأسيس منظمة شباب خاصة بها تتمتع بالاستقلال عن موسكو ، واستند هذا التيار المعارض الى ما كان يسمى « بورت بيستن » ، وهى مجموعة يمينية داخل الحزب البولشفي الأوكرانى ، كانت تنادى بتطبيق أسلوب اشتراكي خاص بأوكرانيا ، يكون مستقلا عن موسكو • وأهم من هذه الجبهة وأخطر منها كان هناك تيار آخر في « الكمول » يسمى نفسه « شباب الاقتصاد » ارتكن الى جبهة العمال المعارضة • عارض هذا الاتجاه الزيادة المطردة لمركزية الاقتصاد وأجهزة الدولة ، ووقف ضد قيادة المؤسسات الاشتراكية بواسطة المديرين الذين تعينهم الدولة ، فطالبت بأن تكون الادارة من داخل مواقع العمل ، على معنى

أن يتولى العاملون في المؤسسة إدارتها ، إذ ينبغي أن تكون إدارة المؤسسات الاشتراكية لهيئة مجلس عمالي منتخب ، يكون نشاطه منسقا على مستوى عال مع مجلس انتاج منتخب . وهذا المشروع يشبه في كثير من جوانبه نظام مجالس العمال الذي طبق في يوغسلافيا بعد ربع قرن عندما تصدعت العلاقات مع موسكو .

وصفت هذه التيارات المعارضة بأنها انحراف خطير . ونذا جرى تصفيتها بالقضاء عليها ، ولم يعد لها ذكر اليوم على الاطلاق .

ازداد عدد المنضمين الى المنظمة بسرعة كبيرة بعد موت « لينين » في يناير سنة ١٩٢٤م ، اد وصل عدد أعضائها في أكتوبر سنة ١٩٢٤م ٧٠٠٠٠٠ عضو ، وارتفع في مايو سنة ١٩٢٨م الى ٢ مليون ، ولكن أعضائها فقدوا الحماس الثوري ، اذ قضت السلطات العليا في الحزب على حركتهم التي فاضت حيوية ، وأوقفت تياراتهم المتدفقة ، وأماتت الأفكار البناءة فازداد خضوعها للحزب ، ووضحت هذه الاجراءات بنوع خاص بعدما قال « ستالين » : « ان منظمة الشباب هي المساعد الأيمن للحزب ، وأداته في تنفيذ ما يريد » .

دبت الحياة مرة أخرى في « انكسمول » ، فاندفع بقوة في خضم الحياة السوفييتية ، وكان ذلك في عام ١٩٢٨م عندما بدأت الخطة الخمسية الأولى ، اذ تسابق أعضاؤها — تماما كما كن في الحرب الأهلية — الى المشاركة في تنفيذها ، بذلوا كل ما عندهم من طاقة وجهد ، فاشترك عشرات الآلاف منهم في بناء المصانع الضخمة في « ستالينجراد » ، وفي « دنيبير » وفي « أورال » و « سيبيريا » بل انهم بنو مدينة بأكملها في الشرق الأقصى ، ولذا أطلقوا عليهم اسم « كسموليسك » تكريما لهم .

كان « الكسمول » في منتصف الثلاثينات — وكان عدد أعضائها آنذاك ٤ مليون تقريبا — تجتاز نقطة تحول ، شأنها في ذلك شأن المؤسسات الأخرى ، فقد تغير أسلوب تنظيماتها جوهرأ وعرضا ، فبعد أن كانت انعكاسا للثورية في حياة « لينين » ، استبدلت بآخر ، حيث احتلت أفكار الثورة ، والنظرة العالمية ، والكفاح من أجل ظلم كل الشعوب — حيثما كانت — المكان الخلفي ، وتقدمت أفكار اقليمية مثل حب الوطن السوفييتي ، والولاء للدولة ، والحفاظ على نظامها .

لم يعد الولاء للاشتراكية ، ولا الحرص عليها ودراسة تاريخها من المقومات التي يعول عليها في الالتحاق « بالكسمول » بل أصبح انفيصل في هذا الولاء للنظام القائم ، والحرص على مسانده وتدعيمه .
اهتم النظام التبروي في « الكسمول » على التثقيف السياسي ، والرياضة البدنية والتدريب العسكري وبجانب هذا دراسات أدبية ، وحفلات موسيقية ، وحفلات رقص .

كتب على شباب المنظمة ألا ينعموا بهذه الحياة طويلا ، اذ بدأت بعد وقت قصير حملة التطهير الكبرى التي امتدت من سنة ١٩٣٦ ، حتى سنة ١٩٣٨م ولم تسلم « الكسمول » منها ، بل أثرت فيها تأثيرا دمرًا . فلم يسلم منها « كوساريف » الذي تقلد منصب الأمين العام « للكسمول » سنوات عدة فقد انضم هذا الشاب — الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ٣٥ عاما — الى « الكسمول » بعد انشائها مباشرة في عام ١٩١٨م ، واشترك وهو شاب لم يتجاوز من العمر ١٦ عاما بصفته عضوا في المنظمة في الدفاع عن « بيتروجراد » ثم اشترك في جبهة انتقال المتقدمة ، وبعد رجوعه اختير أمينا لحى « باومان » في موسكو ، ثم أمينا لرابطة موسكو ، ومنذ مارس ١٩٢٩م يحتل قمة « الكسمول » كأمين أول لها .

وجه اليه البوليس السرى قبل نهاية حركة التطهير بقليل ضربة قاضية ، فاتهم « كوساريف » ومساعديه المقربين اليه بأنهم مخادعون ، وحنافقون ، ومنحلون أخلاقيا ، قاموا بأعمال ضد مصالح الشعب ، وذلك بمسوخ ، وطمس أهداف « الكسمول » .

كانت حركة التطهير قد انتهت عندما التحقت « بالكسمول » في عام ١٩٣٩م وكان عددها آنذاك ٩ مليون عضوا . وقبل أن ألتحق بها بعام بدأت في اعداد نفسى سياسيا لامتحان القبول ، فدرست نظامها ولوائحها الدستورية ، وقرأت أهم ما كتبه « لينين » و « ستالين » ، وألمت — بالطبع — بتاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى وعندما شعرت بالقدرة على اجتياز الامتحان ، كتبت طلبا وأرسلته الى الجهة المسئولة ، والمكلفة بتلقى طلبات الالتحاق ، وشرحت في هذا الطلب — كما هو متبع — سبب الرغبة في الالتحاق ، وعلت ذلك بدوافع سياسية .

وبعد بضعة أسابيع كنت أجلس في حجرة هادئة ، يحيط بى

مجموعة من شباب المنظمة الروسيين ، فحَضُونِي بنظراتهم من أم رأسي الى أخمص قدمي ، ثم قال الأمين : أماننا الآن طلب الالتحاق المقدم من الزميل « ليونهارد » ، وهو معروض عليكم لدراسته واتخاذ قرار بشأنه ، ثم قرأ الطلب أمامهم ، وبعد الانتهاء من قراءته ، ساد الصمت ، وشعرت كما لو كنت في لجنة من لجان الامتحانات المدرسية ، ثم استمر الأمين في حديثه قائلاً : ، كما هو متبع فان من الأجسن أن يقص علينا الزميل « ليونهارد » تاريخ حياته ، وأرجو من الزملاء أن ينصتوا جيداً ، ثم يوجهون أسئلتهم في نهاية حديثه .

كتب على أن أروي للشباب الروسي بصوت رخييم بين المقاطع ، شيئاً من حياتي غير العادية . دارت بخاطري أفكار شدتني الى ما قبل سنتين فقط ، وقلت لنفسي ، لو تقدمت بطلب الالتحاق قبل ذلك بعامين لرفض طلبى بالتأكيد ، إذ لا يوجد أحد في منظمة الشباب ، له من الشجاعة ما يدفعه الى تزكية طلب الالتحاق من شاب نفى في أيام طفولته من ألمانيا واعتقل جهاز أمن الدولة في وزارة الداخلية السوفييتية أمه . أما الآن في خريف عام ١٩٣٩م فالوضع — مهما كانت الظروف — متغير تماماً . طردت هذه الأفكار وبدأت في سرد تاريخ حياتي دون أن يقاطعني أحد . ثم قال الأمين انعام : « أتحبون أن توجهوا أسئلة للزميل « ليونهارد » ؟

— ما هي الأنشطة الاجتماعية التي قمت بها ؟

— كنت مدير تحرير مجلة الحائط في المدرسة لمدة سنة كاملة ، وعضوا في هيئة تحرير مجلة الحائط في بيت الطلبة لمدة سنتين .
— كيف يبدو تحصيلك الدراسي ، ماذا تعلمت ، وكيف ؟

— التحقت بالفصل السادس في العام الدراسي ٣٥ — ١٩٣٦م ، نجحت بدرجة مقبول في الفصل التاسع ، أما في الفصل السابع والثامن فنجحت بدرجة جيد في معظم المواد .

لم يؤخذ على ضعفي في شهاداتي الدراسية في ٣٧ — ١٩٣٨ م ، فقد كانت حالة عامة عند كل التلاميذ في سنوات التطهير ، إذ كانت النتائج عموماً سيئة .

— هل قرأت تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي ؟

— نعم ! ومستعد للإجابة على أى سؤال يوجه الي فى هذا المجال •
لم يوجه الى أحد منهم سؤالا ، ويبدو أنهم لم يكونوا معتدلى
المزاج للدخول فى هذا الموضوع الذى أصبح بالنسبة لهم منفرا ،
وداعيا للاشمئزاز • وبذل أن يوجهوا الأسئلة فى تاريخ الحزب الشيوعى ،
تقاطرت أسئلتهم حول منظمة الشباب ، وكانت اجابتى طبقا لما جاء
فى اللائحة • فأهم واجبات عضو منظمة الشباب هى :

* أن يدرس مؤلفات « ماركس » و « أنجلز » و « لينين »
و « ستالين » •

* أن ينمى معلوماته السياسية باستمراز •
* أن ينشر التغاليم « الماركسيّة اللينينية » بين جماهير الشباب
العريضة •

* أن ينفذ قرارات الحزب البلشفي وقرارات منظمة الشباب •
* أن يشارك بحماس ، ونشاط دعوى فى الحياة السياسية للدولة •
* أن يكون نموذجا يحتذى به فى المواقف الاشتراكية •
* أن يحافظ على الممتلكات الاشتراكية ، ويتصدى لمن يعتدى
على نظام الدولة الاشتراكي •

* أن يكون نفسه علميا ، وتكنولوجيا ، ويساهم فى الحياة
الثقافية •

* أن ينمى نفسه جسمانيا ، وذلك بممارسة الرياضة البدنية •
* أن يكون دائما مستعدا لبذل ما لديه من قوة — وفى حالة
الضرورة يضحى بحياته فى سبيل الدفاع عن « الوطن الاشتراكي » •
* أن يساهم بجد واخلاص فى جميع أنشطة « الكمسمول » ،
وأن يحضر اجتماعاتها بانتظام •

* أن ينفذ كل ما تسنده اليه المنظمة برباطة جأش ، وبسرعة
ودقة •

* أن يبدأ عمل ما يسند اليه فى ساعة الصفر المحددة له ،
ولا يتوقف حتى يحقق ما رسم له ، ويصل به الى نهايته •

— ما هى شروط القبول فى « الكمسمول » ؟

— يقبل في « الكسمول » الشباب الذي تتوفر فيه الشروط الآتية :

- * ألا يقل سنه عن ١٦ ولا يزيد عن ٢٦ عاما .
- * أن يكون مؤمنا بالنظام الأساسي لها ، وأن يعترف بلوائعها .
- * أن يكون له نشاط في إحدى منظماتها التي تخضع لوائعها .
- * أن يقدم طلبا للاتحاق ، يتعهد فيه بأن يدفع اشتراكات العضوية بانتظام .

— ما هو نوع النظام الذي تدار به « الكسمول » ؟

— نظام المركزية الديمقراطية ، فالمرآكز القيادية بالانتخابية ، وتخضع القيادات الصغيرة لمن هو أعلى منها ، كذلك تخضع الأقلية لرأى الأغلبية ، بعد أن تضع تقاريرها أمام هيئة « الكسمول » .
فقال الأمين :

حسنا ! هذا كاف . سؤال آخر ؟

وساد الصمت لحظة ، أردف بعدها الأمين قائلا :

إذا لم يكن هناك أسئلة ، فلننتقل إلى عملية أخذ الأصوات .
فمن يوافق على قبول السيد « ليونهارد » في « الكسمول » ،
ويزيكه يرفع يده .

فرفع كل الحاضرين أيديهم . ولم تنته إجراءات قبولي بهذا التصويت إذ قيل لى أن طلبى سوف يرسل إلى لجنة « الكسمول » الموجودة فى الحى حيث أسكن ، وستصلنى أخبار من هناك ، وعندها يجب أن أذهب إلى لجنة الحى فى الوقت الذى تحدده لى .

طلبتنى لجنة الحى للمثول أمامها بعد أسبوعين تقريبا ، وسألنى أمين اللجنة بعض الأسئلة ، وتحدث معى عن الشرف الذى يناله المرء إذا التحق « بالكسمول » وعن الثقة التى وضعوها فى عند موافقتهم على عضويتى . ثم تطرق الحديث إلى شرح الواجبات الملقاة على عاتقى . لأكون عند حسن ظن من وثقوا بى ، ثم قدم لى — بطريقة رزينة تلوها سيماء السرور — الكتيب الرمادى بعنوان : (WISKM)

(Wososjusnij Loninskij Sojus Kommunistitschokoj Molodjoshi)

وعندما أحبته بأبنيتي، سوف أبذل كل ما في وسعي لأقوم بما تحتمه علي هذه الثقة ، استعملت في حديثي الأساليب المعروفة التي يجب على عضو شيوعي التعبير بها في مثل هذا المجال . وقتلتها بحماس وعن اقتناع بما أقول . وربما يبدو هذا غريبا للقارئ العربي ، فأمر مقبوض عليها ، ورأيت بعيني عمليات القبض على مدرسين نشأت بيني وبينهم عاطفة أبوية ، وقاسيت الكثير عندما كان يختفى أصدقائي واحدا بعد الآخر من جراء ما تقوم به سلطات الأمن ، وغنى عن البيان أنني لاحظت أيضا أن الحقائق كانت شيئا آخر مغايرا لما تنشره جريدة « برافدا » ، ولكن كيف أفصل عن هذه الأثياع وكذلك انطباعاتي الشخصية ، وما قاسيته في سني اقامتي في الاتحاد السوفيتي عن عقيدتي السياسية . لقد بدا لي أن هناك فصلا بين ناحيتين في الأحداث ، أولهما يتعلق بالمرء ، وما يصيبه من جراء سلطات الأمن ، وتلك كانت محلا للنقد والاعتراض ، والأخرى تتعلق بالخطوط العريضة للمبادئ التي كنت أو من بها ، وكانت في نظري آنذاك — رغم بعض التحفظات التي كانت تثير الشك في نفسي أحيانا — سليمة لم يجانبها الصواب .

أعتقد أن كثيرا من أعضاء « الكسمول » ، فصلوا أيضا بين هذين المستويين وكان هذا النوع من التفكير منهجهم ، وأنا متأكد أن بعض الشباب لم يلتحق « بالكسمول » عن اعتقاد بمبادئها ولا عن ايمان بنظمها ، وقد وضحت لي هذه الظاهرة بعد التحاقى بوقت قصير ، عرفت ذلك عن طريق اشتراكى في الجلسات والاجتماعات بصفة مستمرة ، وسرعان ما تعرفت من خلالها على أنواع مختلفة من الشباب ، الذين يمكن أن يقسمهم المرء — حسب رأبي — الى أربع مجموعات :

١ — « المتحمسون » وهم شباب يافع بفيض نشاطا وحيوية ، يبذل كل وقته في عمل « الكسمول » ويتفانى في القيام بما يسند اليه عن طيب خاطر ، فهو مطيع ، يخشى بكل ما يملك . ولكن هؤلاء الأعضاء لا يفكرون في المشاكل السياسية ، ولا يظهر عليهم أنهم يلاحظون التضارب في سياسة الدولة والحزب ، ولا يدركون التحول السياسي المفاجيء . لقد كان « الكسمول » بالنسبة الى هؤلاء الفرصة الوحيدة لممارسة ما يحتاج اليه الشباب في مثل هذا العمر . وكان رأبي في تحليل موقف هؤلاء ، أنه لو كانت هناك منظمة أخرى تختلف عن

« الكسمول » عقيدة ومذهباً لما تردد هذا النوع من الشباب في الالتحاق بها • فلا يهمه ان كانت المبادئ متجهة يميناً أو يساراً •

٢ — كان هناك نوع آخر من الشباب — وكنت واحدا منهم — آنذاك — دخل المنظمة عن اقتناع سياسى ، شعر بأنه مشدود اليها ، فقد أثر فيه الجهاز التنظيمى والمناقشات السياسية • كان هؤلاء نشطين ، أيضا ، وان كان نشاطهم لا يرقى الى درجة نشاط المنحسمين ، فقد لاحظوا بعض المتناقضات ، وكان يعترهم أيضا حالة من التردد ، وامعان التفكير جديا فيما يدور حولهم من أحداث ، غير أنهم حاولوا — بطريقة أو بأخرى — تدليل ما يصادفهم من متناقضات لهدأوا نفسيا •

٣ — « النفعيون » وقد لاحظت أن هذا الصنف — بنوع خاص — من أبناء وبنات قادة الحزب والدولة ، ورؤساء المؤسسات الاقتصادية ، فهم يريدون الوصول الى المراكز العليا — ولا يخفون مقصدهم ، بل يعبرون عنه بشكل سافر — ووجدوا أن « الكسمول » سلم يستطيعون الرثوب عليه كى يتمكنوا من الوثوب بقفزات واسعة ليتوأوا الوظائف العليا الحساسة فى الدولة والحزب •

٤ — قابلنى نوع من الشباب حيرنى أمره ، فليس لديه أدنى اهتمام بما يجرى فى المنظمة ، لذلك أطلقت عليه « مجموعة اللامبالين بطبعهم » فهم شبان لم يخطر ببالهم يوما ما أن يلتحقوا « بالكسمول » وانما دفعتهم الظروف الى الدخول فى المنظمة تقليدا لأصدقائهم ، أو لعب القدر دورا فى التحاقهم بالمنظمة دون أن يكون لهم أدنى مجهود فى ذلك • ومعظم هؤلاء من البنات •

استمرت عضويتى فى هذه المنظمة السوفييتية ست سنوات كاملة ، اعترتنى أثناءها موجات من الشكوك فى نظم وتوجيهات الحياة السياسية فى الاتحاد السوفييتى ، وكنت أعنقد أننى الوحيد الذى يعتقد هذه الأفكار التى تعتبر زندقة وكفر بالنظام السوفييتى ، لكى تبينت بعد مدة طويلة — عندما أنشأت صداقات حميمة مع كثير من الشبان وارتفعت الكلفة بيننا فتحدثنا بصراحة — أننى لم أكن وحدى الذى يعتقد مثل هذه الأفكار •

وضحت الأمور لى شيئا فشيئا — وأنا متأسف ، اذا اضطرتنى ،

المظروف الى عدم ذكر شيء أو وصف قد يفهم منه توضيحا لمن أعنيهم حتى لا أعرضهم للخطر ، وهم اليوم في مناصب عليا — عندما التقيت بالكثير من الشباب المعارض • اعترف لى أحد هؤلاء بأنه لا يؤمن بالأيديولوجية التي تعنتتها الدولة • وتعرفت على آخرين كانوا ماركسيين ولينينيين اعتنقوا تعاليم ماركس وقدموها ، أما اليوم (أيام لقاء المؤلف بهم في المنظمة) فيقفون مع الجبهة المعارضة لنظام في كثير من المسائل والمبادئ الأساسية ، وهم بنوع خاص ضد السلطة المطلقة التي تتمتع بها مخابرات أمن الدولة في وزارة الداخلية ، وضد حركة التطهير التي ذهب ضحيتها الزعماء البلشفيين القدامى •

قرأ على أحد أعضاء المنظمة قصيدة شعر — كتبها بخط يده ، ونسخها الكثير واحدا بعد الآخر — كانت ثورية في تمجيد الحرية والتغني بفضائلها • وسمعت فيما بعد أن أحد الثبان المعارضين كتب قصة بخط يده ، ونسخها الآخرون لأنها تصور لهم ما يدور في ذهنهم من معارضة لنظام الحكم وكانت بعنوان « رحلة جوليفير » الى بلد للهواء فيه آذان •



مفاجأة في حرب فنلندا

قرأنا في أكتوبر سنة ١٩٣٩ في جريدة « برافدا » أن فنلندا رفضت عرضا من الاتحاد السوفييتي لعقد معاهدة دفاع مشترك • ثم قيل لنا ان اتحاد الجمهوريات السوفييتية عرض على فنلندا أن تنتقل الحدود عند « ليننجراد » مسافة ٣٠ كم • وهو مستعد أن يتنازل لفنلندا في مقابل هذا عن خمسة أضعاف هذه المساحة •

ظهر لى موقف فنلندا في بادىء الأمر غير مفهوم ، لأنى لم أسمع أخبارا أو تحليلا حول هذا الموضوع من مصدر آخر ، كما لم يعرف كل المواطنين السوفييت « البعيدين عن السلطة » سوى ما كتبه « برافدا » ، ولم أعلم شيئا عن المناقشات التي دارت في البرلمان الفنلندى ، ولا عن موقف غرب أوروبا وأمريكا ازاء هذه المسألة • ولم يكن عندى — بنوع خاص — أية فكرة عن خوف الشعب الفنلندى من أن المعاهدة ستكون بداية لنهاية استقلال فنلندا ، كما أكد ذلك ما حدث بعد أشهر قليلة في « استلاندا » و « ليتلاندا » و « ليتاون » •

(م ٧ - نظام الحكم الشيوعى)

ازدادت نعمة « برافدا » ضد فنلندا حدة ، فلم تعد تذكر في انصف الثانى من أكتوبر اسم الحكومة الفنلندية ، بل تصفها بالمراهقين الفنلنديين ، والمغامرين ، والمقاهرين ، ونعتت أسماء الشخصيات الفنلندية المتزنة بأوصاف السخرية والاستهزاء .

وانفجر الموقف فى ٢٩ نوفمبر ، اذ عبرت القوات الروسية الحدود الفنلندية ، وزعم فى بلاغ رسمى ، أن القوات الفنلندية قامت بسلسلة من الأعمال الاستفزازية عبر الحدود السوفييتية . ولكن لم يؤخذ الموقف مأخذ الجد ، حتى من أعضاء الحزب « المخلصين » . فاذا استعمل المرء فى حديثه معهم التعبيرات الرسمية عن « الاعتداء الفنلندى » كانوا يعلقون على هذا فى غالب الأحيان بغمزة العين المعروفة ، وقد لاحظت استعمال هذه الإشارة كثيرا فيما بعد .

أعلن بعد أيام قليلة من بدء الحرب الفنلندية الروسية عن استيلاء الجيش الروسى على المدينة الفنلندية الأولى « توريوكى » وعن تكوين حكومة فنلندية شعبية برئاسة « كوزينين » وأصدرت الحكومة الجديدة نداءات الى الشعب الفنلندى ، ووضعت كذلك شكل الأعلام التى سترفعها القوات المكلفة بالزحف على « هلسنكى » .

اصطدمت القوات الروسية — بعد التقدم السريع الذى حققته فى بادىء الأمر باستيلائها على مدينة « توريوكى » — بدفاعات الجيش الفنلندى أمام خط « مانراهيم » ، وسمعا الكثير عن الخسائر التى تكبدتها ، اذ تحولت « الحملة الصغيرة لقوات منطقة « ليننجراد » — كما وصفوها — الى حرب . وكان من الصعب علينا أن نتصور ، أن الجيش الروسى الكبير ، ذا الشهرة الذائعة بأنه الذى لا يقهر ، والذى وصفته لنا دوائر الاعلام والدعاية السوفييتية بأنه أقوى جيش فى العالم ، هذا الجيش يقف الآن فى حرب ضارية ضد فنلندا لصغيرة التى لا يتجاوز تعدادها ثلاث ملايين ونصف نسمة .

كان تعثر القتال على الجبهة أسابيع عدة بالنسبة لنا غريبا ، وأشد منه غرابة ارتباك وسائل النقل والمواصلات ، واختفاء المواد التموينية ، ففى أيام الحرب الأولى كانت قطارات الركاب تتأخر بالساعات ، وبعضها لم يصل على الاطلاق . وبعد بدء الحرب بأيام قليلة كنت أرى فى موسكو الطوابير الطويلة أمام محلات الخبز ، واختفت بعض السلع ، لأنها لم تورد للمحلات .

تساءل الناس آنذاك في موسكو :

إذا أدى الأمر في اصطدامات محلية مع بلد صغير الى ارتباك في ادارات الدولة ، ونقص في المواد التموينية ، فماذا يحدث لو اضطر الاتحاد السوفييتى الى الدخول في حرب ضد احدى القوى العظمى ؟ وعبر الناس عن خوفهم بكلمات هزلية انتشرت في موسكو بطريق الهمس :

• لم يصل شيء بعد ، ولن يصل .

• وسوف يصل ، عندما يوجد .

مضت ثلاثة أسابيع على بدء القتال ، عندما انتشرت اشاعة تفيد بأن الحرب سوف تنتهى قبل يوم عيد ميلاد « ستالين » ، أى في ٢١ ديسمبر ، ولكن جاء هذا اليوم ولم تنته ، ومضت شهور فصل الشتاء ، ونحن نقرأ كل يوم على الصفحة الأولى من « برافدا » في جانبها الأيسر ، بلاغات القوات العسكرية لمنطقة « ليننجراد » ، ولم نتحدث هذه البلاغات الا عن هجوم القوات السوفييتية على « نقط حصينة » ، غير أنها لم تذكر في أى منطقة ، لأن الجيش عاجز عن الاستيلاء على مناطق ، يمكن ذكرها في البلاغات .

وعلى الرغم من أن الحرب لم يكن لها تأييد شعبي ، فان كثيرا من أصدقائى كانوا يعتقدون — وكنت أوافقهم في هذا — أن القتال سوف يستمر حتى تحقق القوات السوفييتية نصرا حاسما . وأخيرا وصفت حكومة شعبية فنلندية جديدة أعضاء حكومة فنلندا الشرعية بأنهم قتلة ، وقطاع طرق ، وفاشيين ، وأنهم — أى أعضاء الحكومة الشعبية — يعتقدون أن الاتحاد السوفييتى لا يمكن أن يتفاوض مع هؤلاء اطلاقا .

بلغت دهشتنا ذروتها ، عندما تم فجأة في ٢١ مارس سنة ١٩٤٠ توقيع معاهدة سلام مع فنلندا . وطبقا لهذه المعاهدة حصل الاتحاد السوفييتى على منطقة « مضيق الكاريلى » ومدينة « فيبورج » ، كما عدلت الحدود في بعض المناطق لصالح الاتحاد السوفييتى ، كذلك استأجر نصف جزيرة « هانجو » كل هذه المكاسب أقل بكثير مما كان متوقعا عند بدء الحرب .

عقدت الحكومة السوفييتية معاهدة سلام مع نفس الزعماء

الفنلنديين الذين وصفتهم « برافدا » قبل بضعة أسابيع بأنهم مغامرون ، ومغامرون . ثم عقد في كل مكان — كما هي العادة — اجتماعات جماهيرية .. حيث شرح للشعب أن انتهاء الحرب دليل على سياسة الاتحاد السوفييتي السلمية ؛ وبرهان على أن قائده « ستالين » لا يريد سوى السلام ، وكما هو متبع في كل الاجتماعات أعلن أن المتحدثين مستعدون للرد على أى سؤال يوجه من المواطنين . وكان هناك في هذه المرة أسئلة : سمعت طالبا يسأل : سيدي المتحدث ؛ هناك شيء غير واضح لى ، منذ بضعة أشهر قامت حكومة شعبية في فنلندا ، ولكنها لم تذكر اطلاقا في توقيع اتفاق السلام . ماذا حدث لهذه الحكومة الشعبية ؟ أسقط في يد المتحدث ؛ وبدا عليه الارتباك حين قال :

« لا أستطيع الاجابة على هذا السؤال الآن ، لأن المرء لا يجد شيئا في البلاغات الرسمية عن هذا الموضوع ، غير أن من المؤكد أن حكومتنا السوفييتية ستأخذ على عاتقها اتخاذ الخطوات اللازمة في هذا الخصوص » .

وعلمت من صديق يعمل في مصنع أن هذا السؤال طرح هناك أيضا أمام المتحدثين ، ولكن المتحدث الذى ينتمى الى طبقة العمال أجب عليه اجابة تتسم بالبساطة :

« آه ! هذا صحيح ! الحكومة الشعبية ! أين ذهبت ؟ لم يقولوا لنا عنها شيئا على الاطلاق في اجتماع التثقف السياسى » .

ذكر ظهور هذا السؤال في معظم الاجتماعات الجماهيرية في احدى المقالات المنشورة في « برافدا » ، وكان ذلك بعد بضعة أيام من تاريخ هذه الاجتماعات ؛ بين الكاتب فيها أن توقيع المعاهدة بين الاتحاد السوفييتى وفنلندا أرسى قواعد علاقات طيبة ، وفتح صفحة جديدة ، ولهذا حلت الحكومة الشعبية نفسها .

وبهذه الجملة القصيرة اختفى اسم الحكومة الشعبية عن الوجود فالحرب قد انتهت ، ولم يعد يذكر شيء منها الا نادرا ، وهذا طبيعي ، لأن الحرب السوفييتية الفنلندية التى جرت أحداثها في عامى ٣٩ / ١٩٤٠ كانت أكبر هزيمة للاتحاد السوفييتى سياسيا وعسكريا . تحدثت بعد انتهاء الحرب مع بعض أصدقائى الذين كنت أتبادل

معهم الأفكار بحذر أثناء فترة حركة التطهير ، فذكر كل منا سببا لهزيمة القوات السوفييتية :

« لم يكن الجيش الأحمر مستعدا لهذه المعركة » •

« كان تقدير القوة العسكرية لفنلندا أقل بكثير من حالتها الحقيقية ».

« لم تكن الرغبة السياسية في تكوين حكومة شعبية سليمة في

• جوهرها » •

« ان القبض بالجملة على الجنرالات والرتب العليا والمتوسطة في

الجيش في حركة التطهير التي شهدتها البلاد أصاب الجيش في الصميم ،

وتركه هزيلا » •

لازلت أعتقد أنه يجب البحث عن الأسباب الحقيقية لنكسة القيادة

العسكرية في فنلندا في عامي ٣٩ / ١٩٤٠ م •

سمعت تفسيراً عجيباً بعد مضي سنوات عديدة — عندما أُلقيت

رحالاً في الغرب — يقول هذا التفسير : ان الاتحاد السوفييتي قاد

الحرب في فنلندا بطريقة تظهر ضعفه ، وكان متعمداً ذلك ، كي يضل

القوى الأجنبية ، في اعطائهم صورة غير حقيقية عن القوات العسكرية

السوفييتية ، امعانا في اخفاء قوتها الحقيقية عنهم • واني أرى أن

هذا التفسير باطل من ألفه الى يائه ، لأنه لم يحدث أن الاتحاد

انسوفييتي كان حريصاً على اظهار قوته ، مثل حرصه في ذلك الوقت

لأن الحرب اندلعت في أوروبا منذ وقت قصير ، وهو يريد أن يظهر

كحليف قوى لألمانيا الهتلرية ، وكان مهتماً في هذا الوقت أكثر من

أى وقت مضى بانتزاع الاعتراف به كقوة عظمى ، قادرة على الردع ،

وباقناع الآخرين ، بأنه يقف على قدم المساواة مع حليفه ألمانيا

النهتلرية ، وبتقوية مركزه — كقوة عظمى لم يشترك في الحرب العالمية

آنذاك — للدعاية لنفسه كي يحصل على امتيازات من وراء ذلك •

ومما يدل دلالة واضحة على أن الحرب الفنلندية أظهرت ضعف

الجيش الأحمر ، — وكان هذا هو الحقيقة ، وليس اظهار الضعف عن

عمد كما يدعون — بدء اعادة تنظيم الجيش على نطاق واسع بعد نهاية

الحرب بأسابيع قليلة ، إذ لم يتهيؤوا اخراج الضباط من السجون ،

• واسناد قيادة الوحدات اليهم •

عزل « فوروشيلوف » في أوائل مايو سنة ١٩٤٠ بعد ما تولى أمانة الدفاع الشعبى سنين عدة ، وحل محله المارشال « تيموشينكو » . أنشئت رتب جديدة فى قيادة الجيش الأحمر ، والأسطول ، وفى أوائل يوليو شددت العقوبة على الهاربين من الخدمة العسكرية ، وعلى المتهاونين فى أداء الواجب ، فالتحية العسكرية لا يتهاون فيها ، وتوقيع العقوبة — بالحجز ، أو منع الأجزاء أو ٠٠٠ أو ٠٠٠ — أمر يجب على كل مسئول أن ينفذه حرفيا . وهذا يعنى أنه يجب أن يسود الضبط والربط .

وأخيرا ألغيت فى خريف عام ١٩٤٠ م لائحة النظام والقانون العسكرى التى كانت تطبق فى الجيش منذ عام ١٩٢٥ م ، ووضعت لائحة جديدة أشد وأقسى منها ، ففيها — مثلا — وجوب طاعة الرؤوس — أيا كانت رتبته — لرئيسه ، واعتبار عدم طاعة الأمر من أكبر الذنوب، التى لا تغتفر فى الجيش وأفحشها مهما كان سبب رفض الأمر . لم تكن الفترة من ربيع عام ١٩٤٠ م حتى خريفه فترة التعديل الواسع الشامل فى قيادات ، وأنظمة ، الجيش الأحمر فحسب ، بل كانت تعتبر أيضا فترة الصداقة مع ألمانيا الهتلرية ، كما أكدت ذلك وسائل الاعلام والدعاية آنذاك .



موسكو أثناء تحائف سنالين وهتلر

كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة لمعاهدة عدم الاعتداء التى عقدت فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ م ، ومعاهدة الصداقة التى عقدت فى ٢٨ سبتمبر من نفس العام ، هو خفوت رنينها ، فالناس فى الاتحاد السوفييتى — وأنا كذلك — تعودوا على « الوضع الجديد » ، وقد وقر فى نفوسنا — بصورة لا تقبل الشك — أنه لن توجد أقلام معادية للنازية : أو كتب تهاجمها . غير أن وسائل الاعلام استمرت تردد بفخر واعتزاز ، أن الاتحاد السوفييتى لم يتورط فى النزاع بسبب سياسته السنية الحكيمة ، وفى بعض الأحيان كانوا يصرحون — بطرق تختلف فى درجة وضوحها — بأن من الممكن أن تكون الحرب بين القوى الغربية العظمى وبين ألمانيا الهتلرية وإيطاليا مفيدة للاتحاد السوفييتى ، وقد ظهرت أيضا أحاديث، هزلية ، واستفسارات عن طريق اللعب بالألفاظ بين الناس حول مركز الاتحاد السوفييتى الممتاز ، بسبب عدم اشتراكه فى الحرب :

« حاول أن تخمن ! من سيكسب الحرب » وجه الينا هذا الكلام طالب في المعهد ، يتولى أبواه مناصب قيادية في الدولة ، وهو متعود أن يزودنا بالغاز وأحاجي — الغرض منها بطبيعة الحال الدعاية للاتحاد السوفييتي — لا تنتشر في الجرائد • ثم توجه هذا الطالب الى السبورة ، وكتب بالحروف اللاتينية أسماء زعماء الدول المشتركة في الحرب آنذاك تحت بعضها :

« موسولينى »

« هيتلر »

« تشامبرلين »

« دالادير »

« تشينج كاي شيك »

« مانرهايم »

ثم اتجه الينا ضاحكا فقال : والآن ! من سيكسب الحرب ؟ لقد كانت هذه بالتأكيد نكتة ، ولكن لم يحلها أحد منا لأننا لم ندرك مقصده ، فقال الطالب :

« ان الاجابة في غاية البساطة » ، وقبل أن ندرك مراده ، عاد الى السبورة ، ووضح كتابة الحرف الثالث من كل اسم ، ووضع تحته خط ، ثم أثار الينا ضاحكا الى حل لم نكن نتوقعه •

انتشرت اشاعة منذ بداية عام ١٩٤٠ م تفيد بأن العلاقة مع ألمانيا سوف تتوطد أكثر ، ونقل الى الأسماع من هنا وهناك كلام حول قرب قيام كتلة حربية بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي ، واعتقد ذلك آنذاك كثير من الناس في موسكو •

وفي منتصف فبراير ١٩٤٠ م امتدحت وسائل الاعلام بحرارة ابرام اتفاقية اقتصادية بين ألمانيا الهتلرية والاتحاد السوفييتي ، وكتبت المقالات عن خطط انجلترا وفرنسا الاستعمارية للتحكم في العالم ، ونشر الكثير من خطب « هتلر » وفي ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٠ م — وعت ذاكرتى هذا التاريخ بدقة — فوجيء القارئ السوفييتي بأن صفحة كاملة من صفحات « برافدا » احتوت على موضوعين فقط ، فقرات طويلة من خطبة لهتلر ، ومقال تناول الموقف الشيوعي من الحرب •

نشطت الدعاية السوفييتية في حملتها ضد انجلترا وفرنسا ، وحملتهما

مسئولية استمرار الحرب ، فقد كتبت « برافدا » في أوائل مارس سنة ١٩٤٠م تقول :

« مضت الآن ستة أشهر على الحرب الدائرة التي أشعلها الاستعماريون الانجليز والفرنسيون ، كي يدعوا تسلطهم ، واستبدادهم في العالم . فعندما لم ينجح هؤلاء الاستعماريون في تنفيذ مخططاتهم لتقسيم العالم من جديد ، فكروا في وسيلة للخروج من هذا المأزق ، ولم يجدوا سوى العكوف على تدبير القيام بمغامرة يستهدفون من ورائها تطوير الحرب الاستعمارية الدائرة رحاها اليوم الى حرب عالمية جديدة » .

وانطلقت أجهزة الحزب تعمق هذا « الخط » الجديد لسياسة الدولة في نفوس الجماهير السوفييتية في اجتماعات شعبية لا حصر لها . ونشرت صحيفة « برافدا » في أوائل ابريل فقرات طويلة من كتاب حكومة هتلر وكان بعنوان « الكتاب الأبيض لوزارة الخارجية » ، وعلقت على ما جاء في هذه الفقرات مؤيدة لها ، وهوافقة على مضمونها . كذلك بررت هجوم « هتلر » على الدانمارك والنرويج ، فقالت : « كانت الاجراءات التي اتخذتها ألمانيا في هذه الحالة اجراءات ضرورية . . . هم يدعون أن ألمانيا خرقت انقانون الدولي بعملياتها العسكرية في البلاد الاسكندنافية ، ومزقت معاهدة عدم الاعتداء مع الدانمارك . . . ولكن اليوم ، وبعد أن اعتدت انجلترا وفرنسا على حرية البلاد الاسكندنافية . للاضرار بمصالح ألمانيا ، اقتضى الأمر أن تتخذ ألمانيا اجراءات مضادة . ولا يدل تباكيهم حول شرعية أو عدم شرعية العمليات العسكرية الألمانية الا على انزلاقهم الى مواطن السخرية والاستهزاء » . والى هنا أصبح واضحاً وضوحاً لا شك فيه أن الخط الرسمي للدولة ، لم يعد ينتهج سياسة الحياد المطلق ، بل يقترب رويدا رويدا من موقف ألمانيا الهتلرية ، فسياسة الحياد استمرت عموماً في الأسابيع الأولى عقب توقيع المعاهدة ، أما التغيير الذي طرأ على الموقف الآن فقد بعث شكوكاً في نفوس الكثيرين . دفعت الشجاعة طالبا في احدى المعاهد العليا في موسكو أن يصرح علناً بما اعتراه من شك غيماً طرأ على سياسة الدولة تجاه الحرب ، وحدث هذا في محاضرة ماركسية لينينية تحت عنوان : « شرعية وعدم شرعية الحرب » . بين المحاصر الفرق بين الحرب الشرعية ، وغير الشرعية على الوجه التالي :

« الحرب الشرعية لا تكون للغزو ، وانما هي حرب تحريرية ، هدفها الدفاع عن الشعب ضد الاعتداء الخارجى ، أو ضد محاولة الضغط عليه من الداخل ، بمعنى تحرير الشعب من عبودية رأس المال أو تحريره من تحكم الاستعماريين . أما الحرب غير الشرعية . فهي على الضد من هذا ، حرب غزو ، تستهدف السيطرة على بلاد أجنبية ، واستعباد الشعوب الأخرى » . ثم حلل عددا من الحروب المعروفة فى التاريخ ، واختتم محاضرتة بالإشارة الى أن من واجب الماركسية اللينينية تحليل الحروب دائما ، ثم بيان موقفها من الحرب المعاصرة . وكما هو متبع أعلن المتحدث بعد انتهاء محاضرتة استعدادة للإجابة على أسئلة الطلبة ، ثم أعطيت الكلمة لأحد الطلبة ليقول سؤاله :

« أيها الزميل المحاضر ! منذ بضعة أيام بدأت قوات ألمانيا عمليات عسكرية ضد الدانمارك والنرويج ، وهى خطوة ضرورية اضطرت ألمانيا إليها ، كما نشرت ذلك « برافدا » . ما هى طبيعة هذه العمليات العسكرية ؟ هل يمكن أن نسميها حربا شرعية ؟ وهل تكون الحرب — اذن — من جانب قوات الدانمارك والنرويج حربا غير شرعية ؟

ساد القاعة صمت رهيب ، وخيل الى أن تنفس الحاضرين قد توقف ، فقد كان السؤال سهما فى مقتل المحاضر ، ولكنه اعتقد أنه أخرج نفسه من المأزق ، عندما قال : « لا يجوز أن ينظر الانسان الى الأمور نظرة رياضية . واحد + واحد = ٢ ، بل يجب علينا ألا ننسى الظروف والملايسات ، فتصنيف الحرب فى هذه الحالة الى شرعية وغير شرعية تعبير خاطئ وغير علمى . ولا يمكن الاجابة عليه بهذه الصيغة .

بينما تطرق اليها نحن الطلبة — وكذلك بالتأكيد الى طبقات الشعب الأخرى — بعض الشك فى صحة « هذا الاتجاه لسياسة الدولة » ، لاحظت مندهشا أن موقف الدولة ازاء ألمانيا الهتلرية أثر من ناحية أخرى على تفكير المواطن السوفييتى ، فعندما وقفت يوما قبل الظهر أمام أحد أكشاك بيع الصحف ، سمعت اثنين — يبدو من هيئتهما أنهما من طبقة فقيرة — يتحدثان عن الحرب فى أوروبا الغربية ، قال أحدهما : « هتار .. ولد جدع » ، انظر ! كيف أعاد النظام الى أوروبا !

فقال الآخر مؤمنا على كلامه :

« يضرب الاستعماريين الانجليز والفرنسيين ، وينك عظام دعاة الحرب » •

وسمعت مرة أخرى هذا السؤال :

« أصحيح أن هتلر أقام معسكرات الاعتقالات التي نسمع عنها ، أم أن المسألة كذبة دعائية أطلقها الاستعماريون الانجليز والفرنسيون ؟ لم ألتق آنذاك بالمنفيين الألمانين الذين يعيشون في الاتحاد السوفييتي الا نادرا ، وشاءت الظروف يوما أن أتحدث مع الشاعر الشيوعي « ايريش فاينرت » الذي صار فيما بعد عضوا في اللجنة المركزية للتنظيم القومي الذي أطلق عليه « ألمانيا الحرة » لقد كنت صديقا لابنته « مارينا » منذ طفولتي في برلين ، وكنت أزورها في المنزل الجديد للكاتب الواقع في « لافروشنسكى برويلوك » عندما دخل « ايريش فاينرت » الحجره علينا ، سألته عن رأيه في الموقف بصفته ألماني يعارض انفاثية ، فتحدث « ايريش فاينرت » — الذي كنت أحس أنه انسن لطيف جدا — عن « موقف مغاير تماما ! » ، عن « الالتزام بواجب جديد ! » ، عن « رؤيه جديدة » مغايرة تماما لما كنا ن فكر فيه قبلا ، ثم قال :

« ربما تكون معاهدة عدم الاعتداء — وكذلك معاهدة الصداقة المعقودة في سبتمبر ١٩٣٩ — هي البداية فقط ، فنحن نتوقع — ويكاد يكون ذلك مؤكدا — قيام تعاون أوسع مع ألمانيا » •

كان هذا هو الرأي الذي سمعته مرارا وتكرارا في النصف الأول من عام ١٩٤٠ ، فقد تحدث كثيرون آنذاك عن توقع قيام تحالف عسكري مع ألمانيا الهتلرية ، حتى أن البعض أخبر أيضا عن توقع اشتراك في العمليات العسكرية ضد « الامبريالية الغربية » •

وعندما بدأ الهجوم في ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ على بلجيكا ، وهولندا ، وفرنسا ، تابعت الجماهير في موسكو أنباء القتال في فرنسا باهتمام كبير ، اذ كان الناس يقفون في طوابير أمام أكشاك بيع الصحف ، صابرين ، متحملين ألم انتظار جرائد الصباح أو لجريدة المسائية الوحيدة في موسكو •

كان معظم الناس يقرأون الجرائد دون ابداء أى تعليق ، فقد تعلموا منذ حركة التطهير ، ألا يعلقوا على الأحداث التي تمس الخط السياسي للدولة من قريب أو بعيد ، غير أن هناك حالات نادرة —

لا زلت أذكرها — عبر فيها بعض الناس في موسكو عن رأيهم بوضوح ،
من ذلك أن أحد المثقفين قال لى يوما :

« أحدث هجوم هتلر على فرنسا تحولا في صفوف المثقفين ، فطالما
كانت الحرب محصورة في بولندا ، والبلاد الاسكندنافية ، كان معظمهم
محايدا ، والبعض كان متعاطفا بعض الشيء مع « هتلر » ولكن هجومه
على فرنسا غير كل شىء رأسا على عقب ، اذ يظهر التنافر تدريجيا من
« هتلر » ، وليس هذا ناشئا من تعاطفهم مع انجلترا ، بل من تأثرهم
بمصير فرنسا المؤلم ، اذ أن كثيرا منهم يشعر بأنه مرتبط ثقافيا مع فرنسا
بالذات . شعرت بتغيير مماثل بين صفوف الطلبة ، ولكنى لست متأكدا
من أن هذا التحول قد ظهر أيضا آنذاك في قطاعات شعبية أخرى .

طلعت علينا صحف موسكو في صباح يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٠ م
بأبناء استيلاء الجيش الألماني على باريس ، فاشترت الصحيفة ،
وركبت الترام متجها الى ميدان « تاجانكا » وجلس بجوارى رجل
متقدم فى السن ، يبدو من هيئته أنه فلاح ، جاء الى موسكو للزيارة .
التقت الى هذا الرجل وسألنى : هل من جديد عن الحرب فى فرنسا ؟
فأجبته : استولت القوات الألمانية على باريس .

فصفق فرحا وقال : سيلقن « هتلر » الفرنسيين درسا لن ينسوه .
لفتت حركته ، وتعليقه انتباه الجالسين فى العربة ، ولكن لم يجد
أى تعليق من أحد ، بل لم ينبس أحد ببنت شفة .
وبعد دقائق كنت أف مرة أخرى أمام أحد أكشاك بيع الصحف ،
فرأيت غلاما يبلغ الرابعة عشرة من عمره تقريبا — ويبدو من ملامحه أنه
يهودى — يقرأ الجريدة وهو فى غاية الاضطراب ، ويردد بصوت حزين
« سقطت باريس .. سقطت باريس ... » وتساقطت الدهوع من
عنقه . ثم أسرع الى بيته ، ربما ليخبر والديه بالأنباء المفجعة ، هكذا
كانت ردود الفعل مختلفة من شخص لآخر آنذاك فى موسكو .

ثم الاهتمام بأبناء القتال فى مرحلة انتهاء القتال فى فرنسا ،
وبداية الغارات الجوية على بريطانيا ، لأن الحوادث اداخلية — التى
انفجرت فجأة بطريقتها المعهودة — باغتت الشعب كله ، واحتلت المكان
الأول فى الصحف ووسائل الاعلام الأخرى شهورا عديدة .

نشرت « برافدا » فى ٢٦ يونية سنة ١٩٤٠ على صفحتها الأولى
نداءا من اللجنة المركزية لنقابة العمال السوفييت تقترح فيه أن تزداد

ساعات العمل في المصانع والشركات من ٧ الى ٨ بالنسبة للعمال ومن ٦ الى ٨ ساعات بالنسبة للمستخدمين • كذلك تزداد ساعات عمل الأحداث الذين تتراوح أعمارهم من ١٦ الى ١٨ ، من ٦ ساعات في اليوم الى ٨ ساعات •

كذلك اقترحت أن تكون أيام العمل الأسبوعية ٧ أيام — كما هو مطبق في جميع أنحاء العالم — بدلا من ستة ، وهو النظام الذي كان مطبقا في الاتحاد السوفييتي حتى ذلك الحين (١) •

لم يقتصر زعماء نقابة العمال على المطالبة بزيادة ساعات العمل ، وزيادة عدد أيام العمل الأسبوعية غقط ، بل اقترحوا أيضا إلغاء حرية اختيار أماكن العمل ، ونص هذا بالحرف الواحد :

« ترى اللجنة المركزية لنقابات العمال السوفييت أن لعمال مجندون في ادارات الدولة ، وشركاتها ، ومؤسساتها الاشتراكية ، ولذا فلا يجوز أن يترك العامل عمله ، أو ينتقل من شركة الى أخرى ، أو من موقع عمل الى آخر » •

ومن الطبيعي أنه كان واضحا أن الدولة ستضع « اقتراحات » اللجنة المركزية لنقابة العمال في صورة تعليمات — وقوانين — واجبة التنفيذ ، بل نشرت في اليوم التالي التعليمات المطابقة لهذه الاقتراحات ، ثم جاءت بعدها « المظاهرة » المصطنعة التي وافق فيها الحاضرون على المقترحات بالاجماع •

أصبحت القواعد التي « اقترحتها » نقابة العمال — زيادة ساعات العمل الى ٨ ساعات ، وتحويل الأسبوع الى ٧ أيام عمل ، وتحريم ترك أماكن العمل — قوانين ، أصدرتها رئاسة مجلس السوفييت الأعلى ، فقد صاغت المادة الخامسة — مثلا — اقتراح تحريم ترك العمل على النحو التالي :

« يقدم العامل — أو الموظف — الذي يترك عمله بدون عذر قهري ، الى المحاكمة ، وتعاقبه محكمة الشعب بالحبس مدة لا تقل عن شهرين ولا تزيد عن أربعة أشهر » •

(١) اختلف نظام العمل حتى ذلك الحين في الاتحاد السوفييتي عنه في كل البلاد الأوروبية الأخرى ، فقد كان خمسة أيام عمل ، ويوم اجازة ، ويوم نهاية الأسبوع ، ولهذا أطلق عليها : عذا يوم عمل ، وذلك يوم اجازة ، ويوم نهاية الأسبوع ، وطبقا لهذا الاقتراح بطل هذا التعريف فأصبح اليوم الاول ، واليوم الثاني ... الخ •

لم تهدد بعقوبة الحبس العمال فقط ، بل مديرو المؤسسات أيضا ،
إذا لم يكونوا حازمين في إدارة ما يوكل اليهم ، أو أهملوا في معاقبة
من يخالف التعليمات •

على الرغم من أن هذه التعليمات والقوانين لم تتعلق بنا مباشرة ،
فقد انعقد عندنا — نحن طلبة الدورة التجهيزية — اجتماع شعبي لمناقشة
هذا القانون ، بعد أن نشرته الصحافة ، ومما قيل في هذا الاجتماع أن
هذا القانون — الذي صدر في ٢٦ يونيو — يعتبر بالنسبة لنا أيضا
— نحن الطلبة — المنهج الصحيح لرفع مستوى التحصيل الدراسي ،
فنحن « نوافق » عليه بالاجماع •

ولم تهض مدة قصيرة حتى أضيفت اليه اضافات أقسى وأشد ،
فقد قرر المدعى الاشتراكي في ٢٣ يوليو سنة ١٩٤٠ أن من يتأخر عن
العمل عشرين دقيقة ، لا يقبل له عذر في هذا التأخير ، بل يعاقب طبقا
لما جاء في « لائحة نظام العمل » ، بخمسة ٢٥ ٪ من مرتبه مدة قد
تصل الى ستة أشهر •

ولا زال هذا القانون القاسي ضد العمال ساري المفعول حتى اليوم •
أحدث « قانون الـ ٢٠ دقيقة » آثارا فظيعة ، فقد علمت من التلاميذ
الذين كانوا يسكنون معنا في بيت الطلبة السابق ، ويشتغلون الآن في
مصانع ، ما يحدث هناك من مآسى ، فالموصلات كانت سيئة لدرجة أن
بعض العمال كانوا يتأخرون عن أعمالهم أكثر من عشرين دقيقة ، ولم
تنفعهم أى حجة في رفع العقاب عنهم ، فمديرو المصانع أنفسهم يرتعدون
خوفا من توجيه الإهمال اليهم في تنفيذ قوانين العمل ، ولهذا قدم العمال
بالجملة الى المحاكمة ، وكان عدد من يعاقب طبقا « للائحة نظام العمل »
مستمر في الارتفاع بشكل رهيب •

انتشرت في موسكو — على الرغم من فظاعة الوضع ، وجدية الموقف
— نكتة عن هذا القانون :

— هل سمعت أن المسرح الكبير قد شبت فيه نارا ، التهمتته عن
آخره ، فأصبح رمادا ؟

— كيف حدث هذا ؟ ألم تستطع المطافىء أن تحصر الفيضان ، فتحول
دون هذا الدمار ؟

— لا ، فالمطافىء في السجن •

— في السجن ؟

— نعم ، لقد حضرت متأخرة عشرين دقيقة ، فلم يسمح لها بمباشرة اطفاء الحريق ، بل زج بها في السجن ، تنفيذاً لما جاء في « لائحة نظام العمل » في عقوبة من يتأخر عن العمل .

سببت موجات القبض ، واجراءات المحاكمة تنفيذاً لقانون العمل الجديد ارتباكاً في المحاكم ، فلم تعد قادرة على انهاء هذا السيل الجارف من القضايا ، ولهذا رؤى طبقاً لمنشور الرئاسة الصادر في ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٠ م أن تقوم المحاكم الشعبية وحدها باجراءات المحاكمة ضد المخالفين « للائحة نظام العمل » دون الرجوع الى هيئة محلفين . احتلت هذه الأحداث مكان الصدارة في حياة المواطن السوفييتي لدرجة أنه لم يهتم بمتابعة الأحداث الأخرى ، بسقوط فرنسا ، والغارات الجوية على بريطانيا ، واحتلال القوات السوفييتية لدول البلطيق ، ودخولها في اتحاد الجمهوريات السوفييتية ، وضم ولاية (بسارابيا) والجزء الشمالي من « بوكوفينا » الى الاتحاد السوفييتي ، ضاعت كل هذه الأحداث في دوامة الاجراءات الداخلية ، اجراءات « محاربة المتعطلين ، والكسالى المهملين ، والمدمرين للنظام » .

لا زلت أذكر حدثاً وحيداً خارجاً عن مجال الأحداث لداخلية التي ذكرتها ، ألا وهو موت « تروتسكي » ، فقد طلعت علينا كل الصحف انسوفييتية في يوم ٢٤ أغسطس بخبر صغير عن موته ، في مكان ظاهر يقول الخبر :

« ذكرت الصحف الأمريكية أن أحد أتباع « تروتسكي » اعتدى عليه ، فأصابه بكسر في الجمجمة ، ومات في أحد مستشفيات المكسيك » . اقتصر كل الصحف على هذا الخبر الصغير ، الا « برافدا » — بوق الحزب — ، فقد هاجمت رفيق « لينين » بعد موته في مقال طويل تحت عنوان : « موت أحد الجواسيس العالميين » . فاض هذا المقال بكلمات السباب ، وبالحقائق التاريخية الزيف ، فقد جاء فيه بالحرف الواحد : « كان « تروتسكي » عميلاً لأحد أجهزة المخابرات الأجنبية منذ عام ١٩٢١ » ، وختم مقال « برافدا » عن أمين اللجنة الشعبية في « بتروجراد » الآن : « ليننجراد » منذ عام ١٩١٧ م ، ومؤسس الجيش الأحمر ، بهذه الكلمة : « لقد ختم هذا الانسان حياته بالعار ، وذهب الى القبر موصوماً على جبينه : هذا جاسوس عالمي ، هذا سفاح » . قابلت في مساء ذلك اليوم — أثناء تجولي — أحد المتحمسين الذين

يعملون في أحد المصانع السوفييتية ، وتطرق حديثنا بدون قصد الى موت « تروتسكى » ، فكان كلامه تعبيراً عن نفس الأفكار التي دارت بخاطري أثناء قراءة الخبر في الصباح :

« لا أدري ، أصبح أن المعتدى على « تروتسكى » من أتباعه ؟ »
واصلنا سيرنا ، فرأينا على عمود الملصقات اعلاناً كبيراً عن احتفال شعبي (VOLKSFEST) (يشبه الى حد ما الاحتفالات التي تقام في الموالدعدنا) (١) فعلق عليه قائلاً :

« ألا تعلم أن بعض العمال عندنا في المصنع يقولون : ان اقامة هذا الاحتفال الشعبي هو بمناسبة موت « تروتسكى » ولم أجه بكلمة واحدة ، لأنه على الرغم من نهاية حركة التطهير فقد كان من الخطر جداً ، أن يتحدث المرء برأيه صراحة في موت « تروتسكى » .

بدأ لى مهما للغاية في أغسطس سنة ١٩٤٠ — أى بعد ١٣ سنة من طرد « تروتسكى » من الحزب ، و ١١ سنة من نفيه خارج الاتحاد السوفييتي — أن بعض العمال لا يصدقون الرواية الرسمية لموت « تروتسكى » ، ويعتقدون أن « ستالين » يأمر بالاحتفال بموت هذا الثائر .

* * *

في المعهد العالي للغات الأجنبية

انتهت الدورة التجهيزية في المعهد العالي في صيف عام ١٩٤٠ م ، واقتربت امتحانات آخر العام من نهايتها .

وبعد مضي أيام قليلة كنت أوقف متوتر الأعصاب في المعهد العالي للمعلمين في المبنى رقم ٣٨ في شارع « متروويسكا أوليتسا » وهو مبنى قديم يتكون من ثلاث طوابق ، ويقع بين محطتى مترو الأنفاق : محطة « القصر السوفييتي » و « منتزه الحضارة » . وسمعت من الطلبة أن هذا المبنى يضم أيضاً معهد عال ، درس فيه « جوجول » ، وشعراء روسيون آخرون .

قيل لى في المعهد :

« لقد أنهيت الدورة التجهيزية في معهد المعلمين ، فلم لا تكمل دراستك فيه ؟ »

— أنا عندي ميل خاص لمعهدكم •

فضحك رئيس قسم شؤون الطلبة وقال :

— « اذن فلنر ما عندك ؛ أمستعد لدخول امتحان اقبول » ؟

— نعم ! فأنا على استعداد كامل ؛ متى أحضر لعمل هذا الامتحان ؟

— مهلا ! لا تسيير الأمور بهذه البساطة ! املا — من فضلك —

هذه الاستمارة أولا ؛ وأجب على ما فيها من أسئلة ؛ ثم أحضرها غدا ،

وبعد ذلك نبحث في طلبك •

لقد كانت أسئلة الاستمارة تفصيلية ؛ تناولت كل صغيرة وكبيرة ،

وبالطبع كانت هناك مجموعة من الأسئلة تدور حول الوالدين ؛ وللإجابة

على ما يتعلق بأمرى ؛ كتبت الجملة المعهودة التي أكتبها دائما في مثل

هذه الاستمارة : « قبضت عليها المخابرات العامة » • لقد كانت استمارة

رسمية يضمن الموقع عليها كل ما كتبه من معلومات ؛ وقبل أن أسلمها

سألت أحد الطلبة الذين كنت أعرفهم معرفة جيدة :

— « ما رأيك ؟ هل يضرني لو كتبت في الاستمارة أن أمى مقبوض

عليها ؟ » •

— « كما لو كنت الوحيد الذى يكتب مثل هذا فى استمارته ؛ انه

من الأمور العادية اليوم ، لو أراد المتحنون فى المعهد اعتباره أمرا

يحول دون دخول الطالب لأفلس المعهد » •

وأنبأنى طالب آخر بما يشبه هذا الكلام :

« لوحظ أن كل الاستمارات التى ملئت فى عام ١٩٣٧م وجزء

من ١٩٣٨م لم تخل من علامة × أمم السؤال عن الوالدين لأنها

-- أو أحدهما — فى المعتقل ؛ فقد أشيع أن لجنة الامتحان تشدد فى

الأسئلة ، لو عرف أعضاءها أن الوالدين أو أحدهما مقبوض عليه ،

ولكن سرعان ما رؤى عدم كتابة × لأن ذلك يلفت نظر المتحنين الى

كثرة أعداد المقبوض عليهم » •

وكان الحق فى جنب هذين الطالبين ؛ فقد قرأ رئيس شؤون

انطلبة الاستمارة — وفيها أن أمى مقبوض عليها — ؛ ولم يبد عليه

أن شيئا غير عادى استوقفه • ثم قال :

« سوف تؤدى امتحان القبول بعد أسبوعين تقريبا ؛ وفى غضون

هذين الأسبوعين ستحصل على بطاقة شخصية (كارنيه) ليسمح لك

بالأكل هنا ، كذلك لن تكون هناك عقيات تحول دون قبولك في مساكن الطلبة لو نجحت في الامتحان » •

ودعته فرحا مسرورا • ثم انشغلت في الأسبوعين التاليين — كما هي العادة — بالاستعداد للامتحان • وفي منتصف أغسطس تلقيت خطابا قصيرا تقول كلماته : « نقر هنا أن الزميل « ليونهارد » قد قبل في الدورة الدراسية الأولى في معهد المعلمين الحكومى للغات الأجنبية في موسكو » • ثم انتهت بعد أيام قليلة اجراءات قبولي في مساكن الطلبة •

وكما هو متبع في كل المعاهد العليا في الاتحاد السوفييتى ، يستطيع كل طالب أن يحصل على مكان في مساكن الطلبة ، ان قدم طلبا ، اذ أن لكل معهد عال مساكن خاصة لطلابه • وكانت مساكن معهدنا في « بتروفيريجسكى برويك » رقم ٦ — ٨ • كانت هذه المجموعة من اعمارات تابعة سابقا للجامعة الشيوعية للشعوب الغربية ، ولما حلت آلت هذه المباني الى معهد المعلمين للغات الأجنبية • أعدت الحجرات بمعدل طالبين أو ثلاثة في الحجرة الواحدة ان كانت كبيرة ، وهى في مجموعها ممتازة نسبيا عن مساكن الطلبة الأخرى •

وفي أول سبتمبر سنة ١٩٤٠ — عندما بدأنا نص الجدد اامنا الدراسى — طلب منا أن يحدد كل منا الكلية التى يريد الدراسة بها : انجليزية أو فرنسية أو ألمانية ، فاخترت الكلية الانجليزية •

اشتمل جدول المحاضرات الجماعية — التى تضم الكليات الثلاث — على تربية • وعلم نفس • وتاريخ تربيته • والمذهب الماركسى اللينينى ، والتربية العسكرية • وبجانب هذا كانت محاضراتنا التخصصية : تاريخ انجلترا ، وأدب انجليزى ، وعلم الصوتيات ، وقواعد اللغة الانجليزية ، وعلم اللغات • تسلمنا جدول المحاضرات عقب اختيارنا للكلية مباشرة • وكان حضورها الزاميا ، يؤخذ الغياب فى كل محاضرة ؛ وكان عندنا فى اليوم من ٢ — ٣ محاضرات عامة ، تستغرق المحاضرة ٩٠ دقيقة وتقسم فى علم الأصوات ، والقواعد ••• الخ الى مجموعات صغيرة •

قسم طلاب السنة الواحدة الى ١٢ مجموعة ، ويبلغ عدد كل مجموعة من ١٥ الى ٢٠ طالبا تقريبا ، يدرسون فيها على هيئة

(م ٨ — نظام الحكم الشيوعى)

« سكاثن » (١). ولكنها لاتتقارن بمثيلاتها في الجامعات الغربية ، اذ أنها لا تخرج عن كونها درسا ، يشبه الى حد كبير حصة في مدرسة .
يوجد هنا أيضا العديد من الامتحانات والاختبارات ، فكل طالب يحمل معه كراسة الفصل الدراسي وعليها صورته الشمسية ، يحملها معه دائما ويبرزها عند دخول المعهد ، وبجانبها كراسة صغيرة يسجل فيها درجات الاختبارات والامتحانات .

يعقد في المعاهد العليا في الاتحاد السوفييتي نوعان من الامتحانات : ما يسمى بـ « ساتشوت » ، وفيه يمتحن الطالب في كل المواد التي عليه ، ولا يحصل علي درجة بل يكتفى بالكتابة في كراسة الامتحانات التي يحملها بأنه أدى هذا الامتحان . وللطالب الحق في أن يحاول أكثر من مرة في وقت معين تأدية هذا الامتحان ، فهو يعتبر اذن مقدمة للامتحان « الأصلي » (أو امتحان تأهيلي) ، فاذا أداء الطالب ، وأطلع أستاذه على ما يفيد ذلك مكتوبا في كراسته ، يسمح له بدخول الامتحان « الصحيح » . ويعقد في آخر الفصل الدراسي في أهم المواد ، ويكون عادة أصعب من الامتحان الأول ، ولا يسمح بتأديته الا مرة واحدة ، ويحصل الطالب فيه على درجات .

اذا قارنا بين الاتحاد السوفييتي والبلاد الغربية يبدو لنا أن الرقابة على الطلبة ، ونظام الامتحانات في المعاهد العليا في الاتحاد السوفييتي أشد ، وأصعب وأدق تنظيما . وتختلف أيضا عنها في جامعات البلاد الأخرى بالتخصص الدقيق ، نعم يوجد في بعض المدن السوفييتية انهماة جامعات تضم كليات مختلفة ، غير أن نظام الجامعات ليس هو الغالب ، بل نظام المعاهد التخصصية ، اذ لا يوجد — على سبيل المثال — في الاتحاد السوفييتي كلية للهندسة ، بل معاهد متخصصة ، كل في فرع ، مثل : المعهد العالي لصناعة آلات التبريد ، والمعهد العالي للتخطيط الهندسي ، والمعهد العالي للتعيين . . . الخ .

يتناسب التخصص الدقيق في معاهد الاتحاد السوفييتي مع الظروف التي تمر بها الدولة ، اذ تستطيع — بواسطته — في وقت قصير جدا أن تخرج الأخصائيين في كل المجالات ، وخاصة في المجال الاقتصادي .

(١) نظام تنفذه الجامعة لدراسة المواد التي تحتاج الى مناقشة ، يستحيل اجراؤها في محاضرة تضم أعدادا كبيرة من الطلاب . (م . شامة) .

وليس هناك خلاف في أن هذا النظام أفاد الاتحاد السوفييتي —
فارتفاع عدد الطلبة (ارتفع عددهم بعد الحرب عما كان عليه في عام
١٩٤٠م) ضمان لاستمرار تخريج المتخصصين في كل المجالات — غير
أنه تسبب في أن الخريجين ، وان كانوا على درجة عالية في منطقة
تخصصهم الا أن معلوماتهم في المجالات الأخرى لا تساوى شيئا •

يكلف كل طالب بعد تخرجه بالعمل في مجال تخصصه سنتين
أو ثلاثة (كفترة تدريب عملي) وتتكفل الدولة أيضا بتعيينه بعد أداء
الامتحان النهائي •

لقد أدهشني الاستعداد الكامل في المعهد العالي ، اذ يوجد
فيه قاعات كبيرة للمحاضرات ، ومكتبة عامة ضخمة ، مزودة بالمراجع
انهاية ، وبجانبها يوجد « مكتبة » لكل مادة تدرس في المعهد (وتتبع
القسم) مثل : علم النفس ، والتربية ، وعلم الصوتيات ، والتاريخ ،
والأدب • ويجد الطالب في « مكتبة المادة » (مكتبة القسم) المراجع
الهامة فيها ، ويساعده في الحصول على ما يريد رئيس القسم أو أحد
مساعديه •

كانت مكتبة « مر » فخر المعهد ، نسبت الى « نيكولاي
جاكوفليفتش » تكريما له ، فقد كانت مؤلفاته بالنسبة لنا آنذاك حقائق
لا تتقصر في علم اللغة ، فقطضاياه اللغوية ، تشترك مع مؤلفات « ستالين »
في عدم نقدها أو نقضها • صورت لنا على أنها قضايا أسست على النظرية
« الماركسية اللينينية » ، فوجهت ضربة قاضية للآراء السطحية في
مجال علم اللغة ، اذ رأى « مر » أن اللغة جزء من البناء الطبقي ،
لا يفهم تطورها الا في اطار تطور المجتمع ، فقد خلقت الانسانية
لغتها في ظل مؤثرات العمل ، وتحت ظروف ارتباطات اجتماعية معينة ،
ولذا فهي تتغير باستمرار ، طبقا لظروف نموذج الحياة الاجتماعي •
لم يفكر أحد منا — اللهم الا ان كان هذا في منامه — آنذاك ،
في أن « مر » المنزه عن النقد ، سيتعرض بعد عشر سنوات لنقد
« ستالين » وهجومه العنيف •

بلغ عدد الدارسين في المعهد العالي للغات الأجنبية في موسكو
آنذاك حوالي ٢٥٠٠ دارسا ، منهم ٢٤٤٠ طالبة ، و ٦٠ طالبا ، فقد
كان المعهد العالي الوحيد في الاتحاد السوفييتي الذي يزيد فيه

عدد الطالبات عن عدد الطلبة بنسبة كبيرة جدا ، ولهذا أطلق عليه الطلبة تفكها « معهد الفتيات العفيفات » ولم يكن هذا المعهد مشهورا فقط. باطلاق اسم « الفتيات العفيفات » عليه ، بل لأنه ضم أيضا طلبة اجانب هم أبناء وبنات اللاجئيين السياسيين ، وكذلك أبناء وبنات زعماء الحزب والدولة وأبناء الدبلوماسيين الذين قضوا مدة طويلة في الخارج .

أنشأت صداقات مع طلبة المعهد ، ولم يكن أصدقائي من الروسيين فقط ، بل من الطلبة الأجانب ، فقد كُن من بين أصدقائي طالب بولندي ، اشترك في الفرقة العالمية التي قاتلت في الحرب الأهلية الأسبانية ، وفتاة أمريكية ، وأخرى كورية ، وطالبة سوفيتية ، قضت زمنا طويلا في « خربين » لأن أبويها كانا مستخدمين في هيئة السكك الحديدية المنشورية (نسبة الى منشوريا) ، كذلك صادقت كثيرا من التلاميذ السابقين الذين كانوا معي في مدرسة « كارل ليبكنيشت » .

رغم تمييز معهدنا بهذه الصفات الفريدة ، فقد كان ذا طابع روسي ، إذ كان فيه — كما هو الحال في كل المعاهد العليا — بجانب الدراسة نشاط أطلق عليه « العمل الاجتماعي » ، وتحدده منظمة الشباب ، وترسم خطته في اجتماعات الحزب (كان كثير من الطلبة أعضاء في الحزب) . لم تختلف اجتماعات منظمة الشباب في المعهد عنها في المؤسسات الأخرى ، اجتماعات مملة ، ليس فيها ما يثير ، إذ لم تخرج عن مناقشة ما أسند الى الأعضاء ، وبيان أن هذا العضو أو ذاك نفذ التعليمات . . . أو . . . الخ ولم تناقش المسائل السياسية الا في مناسبات العطلات الرسمية مثل : قبل أول مايو ، وفي يوم الثورة ٧ نوفمبر ، أو قبل ٢٣ فبراير ، وهو يوم الجيش الأحمر . وكنا نسمع في هذه الاجتماعات المخطب المعروفة التي تلقى في جميع المؤسسات والمصانع ، ومن الغريب أن بعض أعضاء منظمة الشباب المتحمسين للاتجاه السياسي كانوا يسمعون نفس الخطبة مرتين في مناسبة واحدة .

كان أقل من هؤلاء تحمسا أعضاء ما يسمونه « التنظيم الشعبي » الذي ينتمي اليه أيضا — بالضرورة — كل عضو من أعضاء « الكمسهول » . كونت المنظمة « جمعية واجبات الدفاع » في مجال الطيران والكيمياء ، ومن أهم الواجبات ، تنظيم دروس للشباب في القفز بالمظلات ، والتدريب على الرماية ، وتعليم وسائل الدفاع الجوي ، واستعمال المواد

الكيماوية في مجالات الدفاع ... الخ • لكن اقتصر واجبنا — نحن أعضاء الجمعية — من الناحية العملية ، على دفع الاشتراك ، وسماع ثلاث محاضرات أو أربعة في السنة عن الدفاع المدني •

تكون في معهدنا تنظيم آخر ، أطلق عليه « التنظيم العالمي لرعاية المناضلين من أجل الثورة » كان يرعى كثيرا من اللاجئين السياسيين ولكنه لم يكن له نشاط يذكر في معهدنا ولا في المعاهد العليا الأخرى ، إلا أنه انعقد في ٨ مارس — وهو يوم الجمعية الباريسية ، اتخذه التنظيم عيدا له ، يحتفل فيه — اجتماع عام بناء على دعوة هذا التنظيم العالمي • وتحدث في اجتماعنا — يوم ١٨ مارس ١٩٤١م — « فلهم بيك » فعرض لنا فكرة عامة عن الموقف الدولي •

كان التنظيم الثالث الذي كنت عضوا فيه — كما كان ينتمى إليه كل أعضاء منظمة الشباب في المعهد — يسمى « اتحاد الملحددين المناضلين » • فقد هذا التنظيم — بمرور الزمن — أهميته كلية ، وأصبح لا لزوم له ، فقد لوحظت سياسة جديدة تجاه الكنيسة في نهاية الثلاثينات ، وكانت أكثر وضوحا أثناء الحرب • ومن جانب آخر كانت مهمة هذا التنظيم بالنسبة لنا — أعضاء منظمة الشباب والطلبة — لا مكان لها من الناحية العملية ، فقد تربينا دون أن نتلقى درسا دينيا ، ففقولنا خاوية من هذا الجانب ، لم يمسهما أى تيار ديني ولهذا لم نشغل فكرنا اطلاقا بهذا الجانب • وأقل ما ينصور أن مهمة هذا الاتحاد لم يعد لها وجود ، اننى لم أقابل — في مدة العشر سنوات التي عشتها في الاتحاد السوفييتى — انسانا واحدا من جينى ، ليس ملحدا •

انتشر خبر مقتضب جدا في أوائل عام ١٩٤٢م — لم أكن في هذا الوقت مقيما في موسكو — مفاده أن اتحاد الملحددين المناضلين قد حل ، دون اعطاء تفسير لهذه الخطوة ، بل لم تنتشر وسائل الاعلام شيئا عن قرار الحل اطلاقا • وطبقا لطبيعة الأسلوب السوفييتى — كلما رجع الاتجاه السياسى الى ما كان عليه في الماضى — في طمس معالم التاريخ لخدمة الأيدلوجية السياسية ، لم يعد يذكر — حتى في الطبقات الجديدة لدائرة المعارف السوفييتية — أن هذا التنظيم « اتحاد الملحددين المناضلين » كان له وجود في يوم من الأيام •

حياة الطالب السوفييتي

أصبحت في غضون هذا العام أحد الـ ٦٠٠.٠٠٠ طالبا الذين كانوا يدرسون آنذاك في الاتحاد السوفييتي ؛ وكان برنامجي اليومي مماثلا لبرنامج كل طالب آخر •

كنت أحضر المحاضرات المقررة ، و « السكاشن » حتى وقت متأخر من بعد الظهر (أى حتى بعد العصر)^(١) ؛ وأتناول طعام الغداء في مطعم المعهد ، ولا أعود — في معظم الأيام — الى حجرتي الا في المساء • كانت مساكن معهدنا تعتبر أحسن من مساكن المعاهد العليا الأخرى ، ولكنها اذا قيست بالمدن الجامعية في البلاد الغربية ، فهي بدائية جدا ، اذ يوجد في الحجرة دولاب صغير ، بسيط جدا ، نحفظ فيه معاطفنا ، وأحذيتنا الطويلة (أحذية برقبة ضويلة ومصنوعة خصيصا لحماية القدم من برد الشتاء ، ومن رطوبة الثلج)^(٢) التي نلبسها في فصل الشتاء في موسكو • أما « الكرايب » الأخرى ، التي في حوزتنا ، فكنا نضعها — مثلنا في هذا مثل كل الطلبة الآخرين — في حقيبة صغيرة ، وضعت تحت السرير •

كان البرد في الشتاء قارسا ، ولم تكن التدفئة كافية ، مما كان يضطرننا — في غالب الأحيان — الى الجلوس في الحجرة ، مرتدين المعاطف الشتوية ، كي نستطيع تحضير الدروس ، ومراجعة ما أخذناه • كان « الكيس الدافئ » المنقذ الوحيد لنا في مثل هذه الليالي الباردة وهو عبارة عن قربة مملوغة بالماء الساخن (وللأسف لم يكن ساخنا في بعض الحالات ، بل فانر) الذي نستعمله في عمل الثاي • وكان لدى بعض الطالبات سخانات كهربائية بدائية ، لعم الثاي والقهوة ، على الرغم من أن استعمال مثل هذه الآلات ممنوع في المدينة الجامعية ، أما ما يتعلق بالملابس فقد استطعت تدريجيا أن أجاري الطلبة الآخرين ، لدرجة أنى أصبحت مثل الطبقة السوفييت ، وصار من المتعذر على من يرانى أن يظن أنى أجنبي •

كان التعليم آنذاك مجانيا ، وعلاوة على هذا كان كل طالب يحصل من الدولة على منحة دراسية ، ترتفع اذا انتقل الطالب الى دورة أعلى

(٢) (م • شامة) •

(١) (م • شامة) •

(الدورة) الدراسية في الاتحاد السوفييتي فصلين دراسيين ، أى عام دراسى كامل) ، تراوحت المنح آنذاك ما بين ١٤٠ روبل فى أول دورة و ٢٨٠ فى الدورة النهائية •

كان هذا المبلغ كافيا فى ذلك الوقت لمواجهة ضروريات الحياة فقط ، أعنى لدفع الايجار الرمزى فى المدينة الجامعية ، ولشراء ما يحتاجه الطالب من أكل وشرب لسد الرمق فقط • أما الملابس فلا يستطيع الطالب شراءها من المنحة ، الا اذا اقتصد ، بحيث يعيش عيشة الكفاف ، واستطاع ذلك عدد قليل جدا من الطلبة ، ولم أفهم حتى اليوم ، كيف استطاعوا ذلك !

سعى الطلبة الى الحصول على ما ينقصهم من مال ، كل بطريقته الخاصة ، فبعض الطلبة الذين لهم آباء ، أو أصدقاء ، أو أقارب يعيشون فى الريف كانوا يحصلون على طرود مملوءة بالمواد الغذائية (زوادة) وخلافه ، وآخرون تلقوا النقود من آبائهم ، أو من معارفهم الذين يقيمون فى المدينة • وكان هناك فريق ثالث — وعددهم ليس قليلا — مارسوا أعمالا — مثل تنظيف الشوارع من الثلوج ، أو ترجمة ، أو إعطاء دروس فى اللغة الأجنبية — للحصول على ما يحتاجون ، غير أن هذه الأعمال الاضافية أثرت على الدراسة تأثيرا سلبيا لدى الطالب المتوسط الذكاء والتحصيل •

حصل معظم الطلبة الأجانب — وعلى الأخص أبناء وبنات اللاجئين السياسيين — من رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة ، على مساعدة اضافية ، بلغت قيمتها ٢٠٠ روبل شهريا • وهكذا بنغ مجموع ما نحصل عليه ٣٤٠ روبل • ومع هذا كنت أعيش بهذا المبلغ عيشة أحصل فيها على ضروريات الحياة فقط • كذلك حصل الطلبة الروسيون ، الذين فقدوا الأب والأم ، وتربوا فى دور الاحداث على مساعدة ولكنها لم تبلغ قيمة المساعدة التى كنا نأخذها من رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة •

ولكن لم تضايقتنا الصعوبات المادية ، فقد كنا جميعا مشغولين بالدراسة لدرجة أننا لم نهتم كثيرا بالجري وراء حياة رغدة لينة — باستثناء مجموعة صغيرة — وخاصة اذا كنا نرى طبقات أخرى من الشعب تكافح كفاحا مريرا ، ومع ذلك لا تحصل الا على الكفاف •

شغلنى آنذاك شئء آخر ، وأتق راحتى أكثر من هذه الأمور
المادية ، فمئذ نهاية حركة التطهير الحبرى فى أوائل عام ١٩٣٩م : وأنا
أعتقد أن زمن التجسس قد ولى ، وأن الأجراءات المخيفة لن تعود ،
ولكن سرعان ما تبدد هذا الاعتقاد •

فقد كنت على علاقة وثيقة بطالبة : لا أستطيع اليوم أن أصفها
وصفا يدل عليها ، لأنه لا زالت تعيش فى ألمانيا الشرقية ، كانت من
الأفراد القلائل الذين كنت أستطيع التحدث معهم بصراحة • تحدثنا
فى تجوالنا فى منتزه احضارة : وعلى ضفاف « نهر موسكفا » عن
المسائل التى يهتم بها الشباب فى كل البلاد ، وأحيانا عن الأثياء التى
نضايقنا فى الاتحاد السوفييتى • كانت هذه الأحاديث بالنسبة لنا أمرا
ضروريا لا نكف عنه •

وذات يوم همست فى أذنى : عندما كنت واقفا فى إحدى طرقات
المعهد « فولوديا » (وهو الاسم الذى كنت معروفا به بين الطلبة) لابد
أن أتحدث معك الليلة على انفراد فى موضء هام جدا •
توترت أعصابى حتى جاء اسماء • وقبل أن نتحدث أخذت بمنى
عهودا : « عدنى أنك لن تتحدث مع أى انسان ، مهما كانت الظروف
بما أقوله لك الآن » •

ووعدتها بذلك (ووفيت بوعدى أيضا) •

« عدنى أنك لن تفعل شيئا اطلاقا : يفهم منه أنك تعرف أسرارى » •
وبعد أن أعطيتها الموعد بذلك ، بدأت تتكلم بصوت متهدج :
« أنا أعمل مع المخابرات العامة ، فمئذ بضعة أيام طلبونى ،
وأجبرونى على التوقيع على ورقة مكتوب فيها : أننى مستعدة أن أزودهم
بالمعلومات التى يطلبونها ، وألا أقول لأحد شيئا عن مهمتى » •

« والآن أنا مكلفة بكتابة تقارير بصفة مستمرة عن بعض طلبة
معينين • ولن أوقع على هذه التقارير باسمى الحقيقى ، بل باسم مستعار ،
معروفة به عندهم فى مجال هذه المهمة » •

— « عن أى شئء تكتيبين تقاريرك ؟ عن الكلام ضد الحزب ؟ » •
— « ليس هذا فقط ، فهذا قليل نسبيا ، بل مكلفة بالكتابة عن كل
شئء يصدر من الأشخاص الذين سموهم لى ، سواء تتعلق بالسياسة
مباشرة ، أو بطريق غير مباشر » •

— « هل كتبوا اسمى فى هذه القائمة ؟ » •

— « لا ! حتى الآن لم أكلف بالتجسس عليك . ولكنى متأكدة من أنهم سوف يسألوننى عنك ، فقد قيل لى : انها البداية وستأتى أسماء أخرى • ولا أدرى ان كنت أستطيع أن أتغاضى عن ملاحظتك على الموقف السياسى ! أعتقد لا ! ولهذا أرجوك ألا تتحدث معى ابتداء من اليوم فى موضوعات سياسية » •

نظرت فى عينيها ، فلاحظت أنها حزينة جدا ، حزينة لأنها لم تعد تستطيع التحدث معى بصراحة ، ذلك الحديث الذى كان يخفف عنها كثيرا من الآلام النفسية ، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فى حزنها ، بل بدا أيضا — بصفة خاصة — أنها متضايقة نفسيا ، لأنها أجبرت على العمل مع المخابرات العامة ، وقد أحسست هذا بوضوح • ولكن عندما أفصحت لى عن كل ما فى نفسها ، علمت أنها لم يكن لها أن تختار طريقا آخر ، لورفضت العمل مع المخابرات العامة لأثارت الشكوك حولها ، ولربما ترتب على رفضها القبض عليها •

كان اطلاعها اياى على عملها الجديد ، وبطريقة تفصيلية تناولت كل صغيرة وكبيرة (لم أسرد كل ما دار بينى وبينها ، حتى لا أعطى المخابرات العامة معلومات تمكنها من الاهتداء الى شخصيتها) دليلا على صداقتنا المتينة التى أعتز بها ما حييت •

استولت على كآبة قاتلة من هذا الخبر ، وأزعجنى ما روته لى من ناحية أخرى ، اذ أصبح مؤكدا عندى أنها ليست الوحيدة التى تتوم بهذا العمل ، بل يوجد بيننا طلبة ، وطالبات ، يكتبون للمخابرات العامة بصفة مستمرة ، عن كل الأحاديث التى تدور بيننا فى المعهد العالى ، وفى المدينة الجامعية •

كم عدد هؤلاء ؟ مر بذهنى صور وأسماء من أعرفهم من الطلبة والطالبات • ترى ، من منهم يقوم بكتابة التقارير للمخابرات العامة ؟ وتركزت شكوكى حول أحد الطلبة الذين أعرفهم ، ولكن ! هل أستطيع أن أتأكد من ذلك ؟ وهل كان من الممكن أن أشعر بأن هذه الطالبة تكتب للمخابرات لو لم تخبرنى هى بذلك ؟ ومن يضمن لى أن أحدا من أصدقائى الطلبة لم يجبر أيضا على أن يقوم بهذه المهمة ؟ وهل توجد لديهم التثجاعة فيخبروننى بما يقومون به ، وبذلك يكونون قد أفشوا خبرا التزموا التزاما اجباريا بأن يحافظوا على سريته ؟ •

سرى شعور مقبض فى جميع خلايا جسمى ، اذ من المحتمل أن يكون كل حديث — حتى ولو تناول الأمور السياسية من زاوية بعيدة — قد سجل كتابة وبعث به أسبوعيا الى المخابرات العامة ، لم أكن ضد النظام اطلاقا — ولكن ! ألم أقل شيئا — فى وقت ما — ضد الاتجاه االرسمى لسياسة الدولة ؟ ... ثم قررت — ابتداء من هذ اليوم — أن أكون أشد حرصا من ذى قبل ، وأن ألتزم « الخط » التزاما دقيقا فى كل المحادثات ، واذا أمكن فلأحاول تغيير مجرى الحديث بعيدا عن الموضوعات السياسية ، وطرق المجالات التى لا تمس هذا الموضوع من قريب أو بعيد .



الضربة الكبرى فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠

لم يكن قد مضى على التحاقى بالمعهد العالى سوى أربعة أسابيع ، عندما وصلنا فى صباح ٣ أكتوبر سنة ١٩٤٠ خبر — كمن وقع علينا كالصاعقة — غير مجرى حياة الطلبة تغييرا جذريا . أحضر طالب — ساقته قدماه الى الشارع ، عندما استيقظ مبكرا جدا — الجريدة معه ، ودق على أبواب الحجرات وهو يردد بصوت عال :

« ألغيت المنح الدراسية » .

فقال زميلى فى الحجرة : « لقد جن هذا الغبى » ولكنه رغم هذا أسرع فارتدى ملابسه ، وحذوت حذوه .

وعندما خرجنا الى الطرقة ، وجدنا مجموعة من الطلبة متحلقة حوله ، وهو يقرأ عليهم فى « برافدا » قرار مجلس وزراء الاتحاد السوفييتى فرض مصاريف التعليم ، فى المدارس المتوسطة ، وفى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى :

« نظرا لارتفاع الرخاء المادى لعمالك ومستخدمى الدولة ... » عندما سمعنا هذه البداية ، توقعنا شرا .

قرأ أولا ما يتعلق بمصاريف التعليم فى الثلاث سنين الأخيرة من المرحلة المتوسطة ، ثم تلى ذلك الضربة التى أصابتنا :

« وبالنسبة للدراسة فى المعاهد العليا فى الاتحاد السوفييتى تقرر دفع المصاريف على النحو التالى :

- (أ) في المعاهد العليا التي مقرها في موسكو ، وليننجراد ، والمدن الرئيسية في الاتحاد السوفييتي — ٤٠٠ روبل في السنة •
- (ب) في المعاهد العليا التي يكون مقرها في مدن أخرى ، غير ما سبق ذكرها في البند السابق — ٣٠٠ روبل في السنة •
- (ج) في المعاهد العليا ، للموسيقى ، والفن ، والمسرح — ٥٠٠ روبل في السنة •

وتدفع المصاريف في المعهد الذي يدرس فيه الطالب على قسطين :
الأول ١ سبتمبر ، والثاني ١ فبراير •

ملحوظة : لا يجوز تأخير دفع القسط الأول من مصاريف العام الدراسي ٤٠/١٩٤١م عن أول نوفمبر من هذا العام » •

عم الحزن وجوه الطلبة كلهم ، لا بسبب إلغاء مجانية التعليم فقط ، بل أيضا — وبصفة خاصة — لأن القسط الأول من هذا العام يجب ألا يتأخر دفعه عن أول نوفمبر •

قال أحدهم بنبرات يائسة : « لم يبق سوى ٢٧ يوما » •

فكرنا طويلا في تدبير هذا المبلغ ، واتجه اهتمامنا الى كيفية توفيره من المنحة الشهرية التي نتقاضاها ، ولكن جاءتنا الضربة الثانية ، فقد تقرر — باجراء مماثل — وقف صرف المنح الشهرية ، ولا يحصل عليها مستقبلا الا الطلبة المتفوقون •

وكما هو متبع في الاتحاد السوفييتي ، فقد عقدت ندوات لبيان الأسباب التي دعت الى « تغيير قواعد توزيع المنح الدراسية » — حسب ما جاء في التعبير الرسمي — وفرض مصاريف على التلاميذ والطلبة •

انتهت الندوة في معهدنا طبقا للخطة الموضوعية ، ولم يحدث ما يعكر انصفو ، فبعد أن انتهى الخطيب من كلمته ، صفق له الحاضرون كالمعتاد ، ثم استفسر عما اذا كان هناك شيء غير واضح أو أسئلة تحتاج الى شرح ، أو طالب يريد التعقيب على النقاط التي تناولها : فسكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير ، ولم يرفع أحد يده طالبا الكلمة •

وبعد بضعة أيام روى لى طالب أن وكيل وزارة التربية والتعليم ألقى محاضرة في أحد المعاهد العليا في موسكو عن القانون الجديد ، وبعد أن انتهى من محاضرتة ، وجه اليه طالب أمام الحاضرين هذا السؤال :

« كيف توفق بين القانون الجديد ، وبين المادة رقم ١٢١ من دستور الاتحاد السوفييتي ؟ » •
كان سؤالاً محرجاً — فالمادة ١٢١ من دستور الاتحاد السوفييتي ، تنص على مجانية التعليم في جميع مراحل التعليم ، بما فيها المعاهد العليا •

بين وكيل وزارة التربية والتعليم بأن القانون تضمن الدواعي والأسباب التي أدت الى اتخاذ مثل هذا الاجراء ، وسوف تغير تلك المادة من الدستور لتتلائم مع القانون الجديد • وقد حدث هذا فعلاً ويجب ألا يغيب عن الذهن أن هذه الحالة ليست الوحيدة التي يتعارض فيها القانون في الاتحاد السوفييتي مع الدستور •

ولكن الطلبة لم يشغلوا أذهانهم بعد ٢ أكتوبر ، بأن القانون يتعارض مع الدستور أم لا ، بل أمعنوا التفكير فيما ينبغي أن يفعلوه ليسددوا المصروفات •

جاء فرض مصاريف دراسية ، والغاء المنح الدراسية في وقت واحد ، ولهذا أصبح من غير الممكن على كثير من أبناء الريف وبنات العمال ، والفلاحين في المزارع الجماعية أن يسنمروا في التعليم •

رأيت في تلك الأيام عيونا باكية ، وحتمت تلك الظروف على كثير من الطلبة أن يفارقونا • وكان الموقف الدرامي — الذي تأثرت به بنوع خاص — وداع طالب ، أحمر الشعر ، ينحدر من أسرة فقيرة تشتغل بالزراعة ، فقد كان مجتهداً في دراسته ، يحرص أشد الحرص على تحصيل العلوم والقيام بالواجبات الدراسية ، لأنه كان يتمنى أن يصبح مدرساً لتلاميذ المرحلة المتقدمة في المدارس ، وكانت تبدو عليه — قبل صدور هذا القانون — علامات انسور ، كلما تذكر أنه كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أمله •

ولكن لم يكن الطالب الوحيد ، فقد كان عدد الطلبة الذين يتركون المعهد — لأنهم من أسر فقيرة ، لا تستطيع أن تصرف عليهم — في ازدياد مستمر • والحقيقة أنه لم يبق في المعهد الا أبناء وبنات الطبقة الحاكمة ، والضباط والموظفين الكبار •

لم يكن معظم الطلبة الأجانب ، وكذلك كل الطلبة الروسيين الذين نشأوا في دور الأحداث ينتمون الى الطبقة القادرة على مواصلة

أندراسة • ولهذا فقد اعتقدنا في بادىء الأمر أننا سنضطر أيضا الى ترك المعهد ، غير أنه بعد مضي بضعة أيام ، تلقى الطلبة الروسيون الذين تربوا في دور الأحداث تأكيدات بأنهم سيحصلون على المعونات اللازمة لاستمرار دراستهم • وفي هذه الأثناء سعى الطلبة فرادى لدى رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة التى ساعدتنا بين الحين والآخر ، وسرعان ما وصلت اليها أنباء تفيد بأنهم لن يتركونا في هذا المأزق بدون مساعدة ، فقد وعدت الرابطة بأن تدفع مصاريف الدراسة للمعهد ، وتبلغ ٤٠٠ روبل سنويا ، كما ستعطينا منحة شهرية زيادة على المساعدة التى نأخذها منها قبل الغاء المنح الدراسية التى كنا نتقاضها من الدولة •

كلما أعود بذاكرتى الى الوراء ، لا أتذكر فقط مواقف الوداع المؤلمة ، التى شاهدت فيها وداع كثير من أصدقائى الطلبة في المعهد ، بل يبدو لى واضحا أيضا أن هذا القانون أشار الى خطوة جديدة في تطور نظام ستالين •

فتولى المناصب في الاتحاد السوفييتى مقصور على خريجي المعاهد العليا ، الا ما كان نادرا ، وقبل ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠م كانت الفرصة — من الناحية العملية — سانحة ، ومهيئة لكل الموهوبين ، والمهرة من أبناء وبنات العمال والفلاحين — بصرف النظر عن مدى قدرة أسرهم المادية — بأن يتموا المراحل المدرسية ، ويدرسوا في المعاهد العليا ، وبهذا كان الطريق مفتوحا أمامهم لارتقاء سلم الوظائف الى نهايته — وهى حقيقة أثادت بها آنذاك وسائل الاعلام مرارا وتكرارا • ولكن أصبحت القاعدة منذ ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠ مغايرة تماما لهذا المفهوم ، فلن يستطيع — بعد صدور القانون الجديد — الصعود فى سلم المناصب العليا فى الدولة الا أبناء وبنات طبقة معينة ، ألا وهى الطبقة المهيمنة على الوظائف الكبرى فى الحزب ومؤسسات الدولة ، اذن فقد غفلت الدائرة : فالطبقة البيروقراطية الحاكمة التى تكونت منذ نهاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير — امتدت من ٣٦ الى ١٩٣٨م — التى أطاحت بـ « المجموعة القديمة » ، بدأت فى عام ١٩٤٠م فى اتخاذ تطبيق وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول « الطبقات الأخرى » لمشاركتها فى الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة والامتياز الطبقي ، وفقا على أبنائهم يرثونه من بعدهم •

السؤال عن اللاجئين الألمان مرة أخرى

في نهاية نوفمبر سنة ١٩٤٠م — أي بعد مرور عام ونصف على توقيع معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا ، وبعد مرور بضعة أسابيع على زيارة « مولوتوف » لبرلين — تذكر المسئولون فجأة اللاجئين السياسيين الألمانين •

فبعد أن حل بيت الطلبة الذي كنا — نحن أبناء وبنات اللاجئين السياسيين الألمانيين والنمساويين — نقيم فيه ، لم نتقابل ، ولم ير بعضنا البعض الا نادرا ، وبطريق الصدفة ، لأن معظمنا كان يعمل في المصانع ، والبعض كان لا يزال يقيم في المقر الروسي لرعاية الأطفال ، والبعض الآخر اتحق في هذه الأثناء بالمعاهد العليا ، كذلك تروج عدد من بنات روسيات ، واندمجوا في الحياة الروسية •

دهشت كثيرا عندما تلقيت في نهاية نوفمبر سنة ١٩٤٠م — أي بعد أسابيع قليلة من عودة « مولوتوف » من برلين — دعوة لحضور اجتماع سيعقد تحت رعاية اللجنة المركزية لرابطة التنظيم العالمي لحماية المناضلين من أجل الثورة • كنت مسرورا ، لأن هذا الاجتماع سيتيح لي رؤية أصدقائي السابقين •

ذهبت الى مقر الرابطة مشدود الأعصاب ، أستحث عقارب الساعة للوصول الى الساعة ٨ مساء ، وهو الموعد المحدد للاجتماع • وهناك تبودلت التحيات بحرارة ، فقد قابلت — حقيقة — عددا كبيرا من زملائي السابقين في بيت الطلبة رقم ٦ ، وكذلك كثيرا من الشباب الألماني أبناء وبنات اللاجئين السياسيين الذين أقاموا — بعد حل مقرنا — مع أسرهم • علمت أن كلهم تقريبا التحقوا بمنظمة الشباب ، ولاحظت أنهم يتحدثون اللغة الروسية بطلاقة ، بل ان بعضهم كان يتحدث الروسية أحسن من الألمانية •

لقد كان الوقت قصيرا لتبادل التحيات ،وتبادل الحديث ، واستعادة الذكريات ، لأنهم سرعان ما طلبوا منا أن نتخذ أماكننا في القاعة الكبرى ، ثم بدأ البرنامج الرسمي بخطبة ألقاها أحد كبار الشيوعيين النمساويين ، ومما قال فيها :

« أيها الرفقاء : لقد دعوناكم لنصل ما انقطع من احكام الرباط

بديننا ، ولن يقتصر الأمر على لقاء واحد فقط . بل ابتداء من اليوم ، سنجتمع أسبوعيا ، مساء كل يوم اثنين للتثقيف السياسى . وسوف يقسم جميع الحاضرين الى مجموعات صغيرة ، لأن واجبكم لن يكون حضور اجتماع يوم الاثنين فقط لسماع المحاضرة العامة ، بل ستكلفون أيضا بقراءة كتب ، سنعينها لكم ، لتناقشوها في اجتماع المجموعات الصغيرة . وأحب أن أشير هنا بنوع خاص الى أن هذه الدراسة لكم فقط ، فلا يجوز لأحد منكم — لأسباب لا تخفى عليكم — أن يتحدث عنها ، أو يخبر بها أحدا خارجا عن محيطكم بما يدور فيها مهما كانت الظروف .

لقد عشنا زمنا طويلا في الاتحاد السوفييتى ، تعلمنا فيه ، وجوب المحافظة على مثل هذه التعليمات ، ولهذا لم نخبر معارفنا الروس بشيء من هذا اطلاقا . ومما يدل أيضا على اهتمامهم غير العادى بهذه الدراسة ، أنهم سمحوا لكل الذين يعملون في المصانع في الموردية المسائية أن يتغيبوا عن العمل ، دون أن يعلم المسئول في المصنع سببا لهذا سوى أنه بناء على أوامر السلطات العليا .

كذلك لم أتحدث مع الطلبة الروس عن هذه الدراسة الخاصة ، ولكن الأفكار حول هذه الدراسة لعبت بذهنى ، فقد أثار اجتماع الزملاء من الألمانين والنموسويين المقيمين في موسكو بعد سنة ونصف الشكوك عندى ، وجعلتني أكاد أعتقد أنها اشارة الى أن العلاقة مع ألمانيا الهتلرية ، ليست كما تدعى التصريحات الرسمية بأنها طيبة .

لم يلاحظ في وسائل الاعلام السوفييتية أدنى اشارة تدل على سوء العلاقة مع ألمانيا . فكلما جاء في الصحف الأجنبية أنباء يمكن أن تسيء الى هذه العلاقة بأى وجه ، أسرعت الجهات الرسمية الى نفيها بشكل قاطع ، وحازم . وركزت وسائل الاعلام على رحلة « مولوتوف » الى برلين ، بأنبائها ، وتعليقاتها ، وفي منتصف نوفمبر أعادت « برافدا » نشر صورة من اللقاءات ، ظهر فيها « مولوتوف » مع هتلر .

كذلك تجنبوا في ندوات التثقيف السياسى — التى تعقد مساء كل يوم اثنين ، في مقر رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة — الخوض في الموضوعات التى تمس الوضع العالمى المعاصر ، وعلاقة الاتحاد السوفييتى بألمانيا الهتلرية . وكان موضوع دراستنا ينحصر في دراسة تاريخ الحزب الشيوعى — ولثالث مرة أشرت في

دراسة هذا التاريخ = وبعض المسائل الهامة في النظرية « الماركسية اللينينية » ، وسماع محاضرات عن تاريخ الحركة العمالية في ألمانيا . ففى اللقاء الثانى سمعت محاضرة من أحد المسئولين الذين كنت أسمع عنه قبل ذلك دون أن أراه ، ألا وهو « فالتر أولبريخت » تناول فيها بالتفصيل ثورة سنة ١٩١٨ م ، ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن الوضع الحالى لحركة الكفاح ضد الفاشية . وسمعت مرة أخرى محاضرة عن طبيعة الحرب العالمية . وانطلاقا من الرأى الرسمى فى التفريق بين الحرب الشرعية ، والحرب غير الشرعية ، حاول المحاضر أيضا التدليل على أن الحرب من كلا الجانبين — سوء من جانب ألمانيا وإيطاليا أو من جانب إنجلترا وفرنسا — هى حرب استعمارية ، غير شرعية .

لم ألاحظ تغييرا فى « الخط السياسى » الا فى أوائل عام ١٩٤١ م ، ففى احدى المحاضرات ، تحدث « أولبريخت » عن احتمال تغيير طبيعة الحرب — وهو أمر حدث ويحدث فى التاريخ — تبعا للظروف التى تمر بها ، وحينئذ خيم على القاعة صمت رهيب ، لأن مثل هذه الملاحظة لا يمكن أن يقرأها المرء آنذاك فى الصحف . ثم واصل « أولبريخت » حديثه قائلا : « فهذه حقيقة هامة جدا بالنسبة لهجوم ألمانيا على يوغوسلافيا واليونان ، اذ أن هناك عناصر هامة — وخاصة فى قضية يوغوسلافيا — يمكن أن يستخلص المرء منها الحكم بأن الحرب الدفاعية أنتى يشنها كلا الشعبين ضد الهجوم السافر عليهما هى حرب شرعية » . وعلى الرغم من أن « أولبريخت » كان حريصا جدا فى تعبيره وتجنب أيضا كلمة الفاشية — التى كان محرما التلفظ بها منذ توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى — فى هذه الحالة الا أن هذه الاشارة كانت كافية لى .

انقضت بضعة أسابيع ، لم نتناول فيها الموضوعات الحساسة التى تمس العلاقة بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى . وفى يوم الاثنين ٢٦ يونية سنة ١٩٤١ م ، جئنا الى مقر الرابطة ، لنواصل دراستنا المسائية كالمعتاد . وكان المتحدث فى هذه الليلة « أولبريخت » أيضا ، وبعد أن تحدث ما يقرب من ساعة ونصف ، أعلن فى نهاية المحاضرة — كالمعتاد — فتح باب الأسئلة : فتقاطرت عليه من كل جانب حول موضوع المحاضرة — على ما أذكر — لم يكن له علاقة مباشرة بالوضع الحالى ، ولكن

تحولت المناقشة تدريجيا الى أن أصبحت تدور حول الأحداث المعاصرة آنذاك ، فوجه اليه أحد المستمعين هذا السؤال :

« أيها الرفيق « أولبريخت » ، تتحدث الجرائد الأجنبية — ويزداد ما تنتشره حول هذا الموضوع يوما بعد يوم — عن توقع هجوم ألماني على الاتحاد السوفييتي ، إلا أن وسائل الاعلام السوفييتي تكذب هذه الأنباء تكذيبا قاطعا ، ولكن ! هل يمكن أن تعطينا فكرة دقيقة عن هذا الموضوع ؟ » •

غير أن « أولبريخت » لم يجب على السؤال مباشرة ، بل أعاد — مجملا — التكذيب الرسمي الذي قرأناه في الصحف ، ثم اختتم جوابه بهذه الكلمة :

« هذه اشاعات تروجها جهات بغية الاستفزاز ، ولن تقع حرب بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي » •

وبعد ستة أيام بدأ هجوم « هتلر » على الاتحاد السوفييتي •
